مصطفى الغلاييني

عظة الناشئين

كتاب أخلاق وآداب واجتماع



دار المعراج



عظة الناشئين

تأليف: مصطفى الغلاييني

عدد الصفحات (192)

القياس: 14 × 21

الطبعة الخامسة

1438هـ - 2017م

دار المعراج

تلفاكس: 2247242 11 963 +

ص.ب: 31429 - سورية - دمشق

E-mail: meraj.press@gmail.com

الرقم الدولي: 978-9933-586-05-8

عظة الناشئين

كتاب أخلاق وآداب واجتماع

مصطفى الغلاييني

عضو المجمع العلمي العربي في دمشق



بسم الله الرحمن الرحيم

إخواني النَّاشئين:

هذه عِظاتٌ[1] نافِعة، ولآلئُ لامعة، سَتَرَوْنها منظومةَ[2] العِقْدِ في سِـلكِ العِبْرة، منثـورةَ[3] الفائدة بقلم الحِكْمة؛ تُرشِـدُ إلى المَنْهَج[4] القويم، بالأُسلوبِ الحَكيم[5]، وتَهْدي من عَملَ بها إلى صراطٍ مستقيم.

أنشأتها ورائدي[6] فيها الإخلاصُ، وصُوَاي[7] صَدْقُ النِيَّة. وهي تحمِلُ بينَ جوانحها[8] موضوعاتٍ شتَّى، من الاجتماع والأخلاق، وتَنطوي[9] أضالِعُها[10] على مَضامِينَ[11] مُتَنَوّعةٍ منَ الآداب والحِكَم.

---

(1) العِظات: جمع عظة وهي النصح والتذكير بالعواقب.

(2) منظومة: مجموعة مؤلفة.

(3) منثورة: مفرقة.

(4) المنهج: الطريق الواضح.

(5) الأسلوب: الطريق، والفن من الكلام. الحكيم: ذو الحكمة، وهي الكلام الموافق للحق، ووضع الشيء في موضعه.

(6) الرائد: الدليل. وأصل معناه: الرسول الذي يرسله القوم ليرى لهم مكانًا ينزلون به.

(7) الصوى: حجارة تنصب في الطريق ليهتدي بها المارون. وهي جمع صوّة، بضم الصاد وفتح الواو مشددة، والمراد بها هنا الأدلة.

(8) الجوانح: الأضلاع تحت الترائب مما يلي الصدر كالضلوع مما يلي الظهر. والترائب: عظام الصدر. ومفرده تريبة.

(9) تنطوي: تشتمل.

(10) الأضالع: عظام صغيرة من عظام الجنب، وهي جمع أضلع، ومفرد الأضلع ضلع.

(11) المضامين: جمع مضمون، ومضمون الكلام: فحواه وموضوعه.

فهيَ جَعْبةُ عِبَر، وكِنانةُ[1] عِظاتٍ، يَدرَأُ بِها[2] النَّاشيءُ عن نَفَسه جُيُوشَ الخُمول؛ وكَتائِبَ الضَّعة[3]، ويَدفعُ ما يَنْتابُها من عَوادي[4] الأمراض الاجتِماعيَّة، وطَوارِئ[5] الأَسقامِ الزَّمَنيَّة.

فَعُضُّوا عليها، أيُّها النَّاشئونَ، بالنَّواجِذ[6] تَكُنْ لكم دَرِيئَةً[7] يومَ تكونُون شُبَّانًا، وذُخْرًا[8] حينَ تَصِيرون شِيبًا[9].

وَسلامٌ على مَنْ سَمِعَ عِظَتي فَوَعاها[10] وعَمِلَ بمُقتَضاها.

الغلاييني

---

(1) الجعبة والكنانة: الوعاء، وأصل معناهما: وعاء السهام والنّشاب.

(2) يدرأ: يدفع.

(3) الكتائب: الجيوش، ومفردها كتيبة. الضعة: الانحطاط والخِسة.

(4) ينتابها: يصيبها ويأتيها مرة أخرى. العوادي: النوازل.

(5) الطوارئ: الحوادث والدواهي.

(6) النواجذ: أقاصي الأضراس، وهي أربعةُ، ويقال عضَّ على الأمر بنواجذه وبناجذيه إذا حرص عليه.

(7) الدريئة: ما يستتر به الصائد ليختل الصيد ويخدعه حتى إذا أمكنه الصيد رمى. وهذا الأمر دريئة لي أي وقاية وحفظ.

(8) الذخر: الذخيرة. وجمعه إذخار.

(9) الشيب: جمع أشيب، وهو من أدركه الشيب.

(10) وعاها: حفظها وتدبرها وقبلها.



مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونســتغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشــهد أن محمداً عبده ورســوله، صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن شأن الأخلاق عظيم، وإن منزلتها عالية سامية، ولا عجب في ذلــك، فلا بقاء لأمة أو حضارة ما لم تتمســك بسنن الأخلاق والفضائل وتغرس في نفوس أبنائها كريم الشيم ونبيل الخصال.

وقد أولت الشرائع السماوية كافة وفي مقدمتها الشرع الإسلامي الحنيف، عناية فائقة بالأخلاق، فتضافرت نصوص الشرع وتظاهرت على الحث والترغيب في محاسن الأخلاق، بل نصت على أن الدين هو الخلق، و أن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً.

بل إن الرســول ﷺ بين أن الغاية من بعثتــه إنما هي إتمام مكارم الأخلاق.

قال عليه الصلاة والسلام: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وعلى هديه سار المصلحون والمربون يستضيئون بنوره، ويعالجون ما ينتاب النفس البشرية من انحراف وهبوط وما يصيب الأخلاق من عُقد وعلل، ويجتهدون في إنارة السبيل أمام الأجيال ويمهدون لها دروب المجد والرفعة.

والشيخ مصطفى بن محمد سليم الغلاييني رحمه الله واحد من أولئك المصلحين المربين الذين خبروا سبل الإصلاح والتربية، وقد جاد قلمه بعظات نافعة، غزيرة الفائدة، متنوعة المضامين، صاغها بأسلوب رصين، وضمنها الحكمة البالغة والفكرة الراقية والعبرة المستفادة، و كان رائده فيها الإخلاص وصدق النية، فكانت حقاً خير ما يعين على دفع الخمول والضعة، أخذة بيد من يتخلق بها نحو فضاء رحب من السمو والعلا، بعيداً عن عوادي الأمراض الاجتماعية والأسقام الزمنية، و كما وصفها صاحبها هي عظات تهدي من عمل بها إلى الصراط المستقيم.

والمؤلف رحمه الله من رجالات الفكر والأدب والتربية والقضاء، عرفه أهل العلم وألفوا مؤلفاته وأعماله، وقد أورد الأستاذ خير الدين الزركلي في أعلامه ترجمة مختصرة للشيخ مصطفى الغلاييني رحمه الله، وأورد فيها أهم المحطات في حياته، وسرداً لأعماله ومؤلفاته، نوردها هنا بتصرف يسير لفائدتها.

ـ مصطفى بن محمد سليم الغلاييني (1303 ـ 1364 هـ = 1886 ـ 1944 م) : شاعر، من الكتاب الخطباء. من أعضاء المجمع العلمي العربيّ. مولده ووفاته ببيروت. تعلم بها وبمصر، وتتلمذ للشيخ محمد عبده سنة 1320 هـ، أصدر مجلة (النبراس) ببيروت،

ووظف فيها أستاذاً للعربية في المدرسة السلطانية ، وعين خطيباً للجيش الرابع (العثماني) في الحرب العامة الأولى، فصحبه من دمشق مخترقاً الصحراء إلى ترعة السويس من جهة الإسماعيلية وحضر المعركة والهزيمة. وعاد إلى بيروت مدرساً. وبعد الحرب أقام مدة في دمشق، وتطوع للعمل في جيشها العربيّ. وعاد إلى بيروت مدة، ثم رحل إلى شرقي الأردن، فعهد إليه أميرها (الشريف عبد الله) بتعليم ابنيه، فمكث مدة وانصرف إلى بيروت، فنصب رئيساً للمجلس الإسلامي فيها، وقاضياً شرعياً إلى أن توفي.

من كتبه:

1 ـ نظرات في اللغة والأدب.

2 ـ عظة الناشئين.

3 ـ لباب الخيار في سيرة النبي المختار.

4 ـ خيار المقول في سيرة الرسول.

5 ـ الإسلام روح المدنية في الرد على كرومر.

6 ـ نظرات في كتاب السفور والحجاب.

7 ـ الثريا المضية في الدروس العروضية.

8 ـ أريج الزهر.

9 ـ رجال المعلقات العشر.

10 ـ الدروس العربية.

11 ـ ديوان الغلاييني.

الناشر



الإقدام[1]

خَلَقَ اللهُ الإنسان لِيكون عاملاً لِما يُحْييه، ساعيًا في مَناكب الأرض[2]، مُنتفِعًا بِخَيْراتها، دائِبًا[3] فِيما يَعُودُ عليه وعلى مجموع الأُمَّةِ بالخيرِ الجَمّ[4]. ولا يكون ذلك إلا بالإقدام وبَذلِ الجُهْد[5].

إنَّ السَّلف الصَّالح لم يَبْلُغْ تلك العَظَمةَ الهائلة[6]، ولم يُذَلِّلِ تلك العَقَباتِ[7] الصَّعبةَ المُرتَقَى، ولم يَصِل إلى مَا يُطَأطَأُ[8] عِنْدَ ذِكْرِهِ كلُّ رأسٍ؛ إلا بالإقدام وإثارة الهِمَّة[9].

---

(1) الإقدام: مصدر أقدم على الأمر بمعنى جروء عليه.

(2) مناكب الأرض: نواحيها وجوانبها وطرقها. ومفردها منكب.

(3) دائبًا. جادًا مستمرًا.

(4) الجم: الكثير الغزير.

(5) الجهد: المشقة والطاقة.

(6) الهائلة: العظيمة. والهائل من الأمور: ما عظم عليك وأفزعك.

(7) يذلل: يخضع ويهون. العقبات: الصعوبات، ومفردها عقبة، وأصل معناها: المرتقى الصعب في الجبل، والطريق في الجبل.

(8) يطأطأ: يخفض وينكس.

(9) إثارة الهمة: تحريكها وتهييجها.

وإنَّ الخَلَف لم يَتأخّر عن هذه المَرتَبة، ولم يُقَصّر عن تلك الغاية[1]، إلا بعدَ أن تَقاعَسَ[2] عن العمل النافع، وأحجَم عن الأخذ بِشَتات[3] الحَزْمِ.

إن الأُمَم كلَّها قد نهضَت، وبلغت من مُخْتَلفِ المُنَى[4] ما بلغت، بعدَ أن كانت هَباءً[5] مَنْثُورًا، وطمْرًا محْقُورًا[6]، وعُضْوًا مَبْتُورًا[7]، ونحنُ لم نزل في سُبات[8] عَمِيقٍ، ومكانٍ من التَّقاعُسِ سَحِيق[9]؛ وقد كُنَّا السَّابقين الأوَّلين، والهادِينَ المَهْدِيِّين!

فأحيُوا، يا رَعاكُم اللهُ، هذا المجدَ الدَّاثر[10]، وأقِيلُوا ذلك الشرَف العاثِر[11]، وأَنشِرُوا[12] ما كانَ من عِزكم مَقبُورًا، ولا

---

(1) الغاية: المدى، ونهاية الأمر، والفائدة المطلوبة. والنسبة إليها غائي، وجمعها غاي وغايات، كما تقول: ساعة وساع وساعات.

(2) تقاعس: تأخر ولم يقدم، والتقاعس: التأخر.

(3) أحجم: كفّ وتأخر. الشتات: المختلف المتفرق.

(4) المُنى: جمع منية؛ وهي البغية والمراد وما يتمناه الإنسان.

(5) الهباء: الغبار، أو شيء يشبه الدخان ينبث في ضوء الشمس، منثورًا: متفرقًا.

(6) الطمر: الثوب الخلق البالي، وجمعه أطمار. المحقور: المحتقر المرذول.

(7) المبتور: المقطوع.

(8) السبات: النوم، والراحة؛ ومنه يوم السبت لأنه يوم راحة لليهود ينقطعون فيه عن الأعمال.

(9) سحيق: بعيد.

(10) الدائر: البالي الممحو.

(11) أقيلوا الشرف انهضوا به وارفعوه. يقال: عثر فلان فأقلته عثرته، أي كبا فرفعته من كبوته.

(12) أنشروا: أحيوا، والإنشار: الإحياء بعد الموت.

تَجْعَلوهُ شيئًا مَهْجُورًا، فإني أرَى، إن لم تَستَيْقِظُوا، كَفَنًا مَنْشُورًا وقَبْرًا محفـورًا؛ وهُنالِكَ نَدْعُو ثُبُورًا[1]، فـلا نَجِدُ نَصيرًا، ولا نُلفي ظَهيرًا[2].

فانهضُـوا نَهْضَةً تَمِيـدُ لها الرَّاسـيات[3]، وتسـكُن عندَها الجامحات[4] قبلَ أن تقْرعنا القارعات[5]، وتَصُخَّنا الصَّاخات[6]، فَنَلْمِسُ المَمات، فلا نجِدُ إلا الوَيْلات[7].

إنَّ في يَدِكم أمرَ الأُمَّة، وفي إقدامكم حياتَها.

فأقدِمُوا إقدامَ الأَسدِ الباسـلِ[8]، وانَهَضُوا نُهُوضَ الرَّوايا[9] تحتَ ذاتِ الصَّلاصِل[10]، تحيَ بِكم الأُمَّة.

والله لكم مُعِين، وهو يجزي المُقْدِمين.

---

(1) الثبور: الهلاك والخسار والخيبة.

(2) نُلفي: نجد. ظهيرًا: معينًا.

(3) تميد: تضطرب وتتحرك وتزيغ. الراسيات: الجبال.

(4) الجامحات: الخيول تجمح براكبها حتى تلقيه عن ظهرها.

(5) تقرعنا: تصيبنا وتفاجئنا. القارعات: المصائب والدواهي.

(6) تصخنا: تضربنـا، أو تصم آذاننا. الصاخة: صيحة تصم الآذان لشـدتها، وأصل معنى الصخ: ضرب الحديد في الحديد.

(7) الويلات: الفضائح والبليات، ومفردها ويلة.

(8) الباسل: الشجاع الكريه اللقاء.

(9) الروايا: الدواب التي تحمل مزادات الماء. ومفردها راوية.

(10) الصلاصل: الأصوات والرعود. والمراد بذات الصلاصل: المزادات التي تحمل على الروايـا لأنها تكون من جلد فتصـوت عند قيام الدابة بها وعند مشـيها. والمراد انهضوا نهوضًا شديدًا.



الصبر

إنَّ الرَّجل العاقلَ من يَصْبرُ علـى الخُطُوب[1]، ويُقابِلُها رابِطَ الجأش[2]، لا من يقابلها مَشْدُوهًا[3]، لا يَسْتَقِرُّ على حالٍ من القَلَق.

أمَّا النَفْـسُ العاقلة، فإنَّ فيها مَلَكةً التُـؤَده[4] والتأني، وهي تَسْـعَى هادئةً لتُزيلَ ما أَلَمَّ بها[5] من الخَطْب، وتَدْفَعَ عنها عادية المِحَن[6].

أما النَّفس الجاهلـة، فهي دائمةُ الاضطـراب لكل خَطْبٍ يَنزِلُ، وإنِ كان يَسِيرًا[7]؛ لأنها تَعتقدُ أنْ لا قِبَلَ لها[8] بتَلقِيه، ولا

---

(1) الخطوب: الأمور، شديدة كانت أو غير شديدة. والمراد بها هنا الأمور العظيمة، ومفردها خطب.

(2) الجأش: النفس. وفلان رابط الجأش أي يربط نفسه عن الفرار ويمنعها لشجاعته، والجمع جؤوش.

(3) شده فلان «بالبناء للمجهول»: دهش وشغل وحير فهو مشدوه.

(4) الملكة: الصفة الراسخة في النفس. التؤده: الرزانة والتأني.

(5) ألمَّ بها: نزل بها.

(6) العادية: النازلة والمصيبة.

(7) يسيرًا: قليلاً هينًا.

(8) لا قبل له بالأمر: لا طاقة له به.

طاقةَ لها بِدَفعِهِ؛ فهي لا تَسْتطِيعُ التَّملُّصَ منهُ، ولا تَقدِرُ على التَّفَصِي[1] من عادِيَته.

وهذا هُو الفَرْقُ بينَ النَّفْسَين.

فَكُنْ أيُّها النَّاشيء، ذا نَفْسٍ عاقلة صابرة، وذلك بتَعْويدها اكتسابَ الفضائل، ونَبْذَ[2] الرَّذائل، والتَّحلِّيَ بالكمالات الإنسانيَّة، والتَّجَمُّلَ بِحِلَى[3] الرِّجُوليَّة[4]. وذلك يَسِيرٌ على من هَداهُ اللهُ النُّزوعَ[5] إلى الفضيلة، فَنَزع عنهُ رِداءَ الرَّذيلة، فلَم يُعطِ النَّفْسِ الصَّامِتةَ[6] هَواها، ولم يَسْلُبِ النَّفْس النَّاطقة[7] مُناها، فَخَرجَ بذلك من مَرتَع الحيوانِيَّة، إلى بيئة[8] الإنسانيَّة.

واللهُ يَجزِي الصَّابرينَ على تَهذِيب النَفس، ويَرفَعهُم إلى مقام المُهْتَدِين، عن مَنْزِل اللّبْس[9].

فإلى الصَّبْر على تهذيب نُفُوسكم أدعُوكم؛ فإنَّ عاقبة ذلك نجاحُ الدَّارَين، وسعادةُ الحياتَيْن؛ والفوزُ بالحُسْنَيَيْن.

---

(1) التفصي: التخلص والتملص والتفلت.
(2) النبذ: الطرح.
(3) التجمل: التزين. الحلى: بكسر الحاء، جمع حلية وهي ما يتحلى به.
(4) الرجولية: صفة الرجال، ومثلها الرجولة.
(5) نزع إلى الأمر نزوعًا: ذهب إليه ومال إليه.
(6) النفس الصامتة: هي النفس الجاهلة الأمّارة بالسوء.
(7) النفس الناطقة: هي النفس العاقلة المرشدة إلى الفضائل.
(8) البيئة: الحالة والمنزل.
(9) اللبس: بفتح اللام الحيرة، والتباس الأمور، واختلاط الظلام.



النِفاق[1]

لم أَرَ بينَ الخِلال[2] القبيحة، والصِفاتِ الضارّة ـ التي سَرَتْ في جسم الأُمّة سَرَيان الكَهْرَباء في الأَجسامِ ـ خَلّة أقبحَ، ولا صِفَةً أشنعَ، من داء النِفاق.

ذلك الداء الوَبِيلُ[3]، والمـرضُ الفَتّاك[4]، أكثرُ ضررًا بالأُمّة من ألدِّ أعدائها[5]، الذينَ يَتَحَيَّنُونَ[6] الفُرَصَ للانتَفاضِ عليها[7]، وانتقاصِ بِلادِها من أطرافها.

إنَّ العَـدُوَّ المُهاجِم؛ إذا رأَتهُ الأُمَّةُ تَهيَّـأتْ لِدَفْع أذاه، وصَدِّ غاراته، بِما هـوَ عَتِيـدٌ[8] لَدَيْها من وسـائل الدّفاع، وأسـبابِ

---

(1) النفاق: أن يظهر المرء خلاف ما يبطن.

(2) الخلال: الخصال، ومفردها خلة، بفتح الخاء.

(3) الوبيل: الشديد.

(4) الفتاك: الشديد الفتك. والفتك: البطش أو القتل على حين غفلة.

(5) ألد الأعداء: هو الخصم الذي لا يميل إلى الحق.

(6) يتحينون: يترقبون.

(7) انتفض عليه: تغير عليه.

(8) عتيد: مهيأ حاضر.

المُصادمةِ. فإن لم تَتّقِ[1] شَرَّهُ كُلَّهُ، فإنها تَدْرأُ[2] عنها ما تستَطيع دَرأَهُ مِنْ أَواذِيِ[3] عُدْوانِه.

أمَّا المُنافِقُ ـ عَدوُّ الأُمّةِ الرَّابضُ[4] في قَلبها ـ فهي لا تَدْرِي كيــفَ تُحاربُه، ولا تَعْرِفُ من هــو لتُقاومَه؛ فهــو يُضْعِفُ قُوَّتَها المعنوية، ويُخَدِّرُ[5] أنباضَ[6] نَهضَتِها المُباركة، وهي حَيْرَى ممَّا يصِيبُها، وَلْهَى[7] من داء لا تعرف كُنْهَهُ[8] ولا مَصْدَرَهُ.

فإن دامتِ الأُمّة على ذَلك حِينًا من الدَّهر، من غير أن تَبحَث بَحْثًا دقيقًا، وتَفْحص فَحْصًا حَكِميًا، لِتَعــرفَ تلك الجُرثُومَة[9] الموبؤَة[10]، فَتَسعَى لإبادتها[11] وتَعْلَمَ كنْهَ مَرضِها، فَتُداوِيَهُ بالدَّواء النّاجِعِ[12]، كانت عاقبةُ أمرها انحِلالَ الرَّوابط؛ وفَســادَ الأَخلاقِ

---

(1) اتقى الشر: تحفظ منه.

(2) تدرأ: تدفع.

(3) الأواذي: الأمواج، ومفردها آذي. والمراد بها المضرّات.

(4) الرابض: الجالس المستقر.

(5) يخدر: يضعف.

(6) الأنباض: جمع نبض، وهو حركة القلب والعروق.

(7) ولهى: ذاهلة متحيرة فاقدة الشعور مما أصابها.

(8) كنه الشيء: حقيقته.

(9) جرثومة الشــيء وجرثومه: أصله، ويطلقان اليوم على النسمات التي يسمونها المكروب، والجمع جراثيم.

(10) الموبؤة. التي فيها الوباء، أو التي أصابها الوباء.

(11) الإبادة: الإهلاك.

(12) الناجع: المفيد النافع.

وهَناك الموت الأَكبر، الذي يَمْحو الأُمَّةَ من لوح الوجود، فَتَكُونُ مَعَ الهالكين.

فأُعيذُكم، مَعشرَ الناشِئين، أن تكونوا من المُنافقين.

اِحذَروا أن يَدِبَّ في قُلوبكم دَبيبُ[1] هَؤلاء الأشرار، فَتَمَسَّكمُ النار. وما هي إلا نارٌ تُحْرِق الأَخضرَ واليابِس، فَتَجْعَلُ رُبُوعَ الأُمَّةِ دَوارِسَ[2].

اعمَلوا، رَعاكم الله، على تَعْريف الأُمَّةِ بِهم؛ وتحذِيرها كَيْدَهم[3]، تكونوا من القوم الصالحين.

واللهُ مَعَ السَّاعين لرَدِ كَيْدِ المنافقين، لِتكونَ الأُمَّةُ في أعلى عِلَيين[4].

* * *

---

(1) يدب: يمشي ويسري. والدبيب هنا هو بمعنى الأفكار الفاسدة التي تسري في الإنسان من حيث لا يشعر، شبهت بالدبيب وهي الهوام «الحيوانات الصغيرة» التي تسري في الماء وتنسل فيه انسلالاً.

(2) الربوع: الديار. دوارس: ممحوة الآثار.

(3) الكيد: الخداع والمكر.

(4) أعلى عليين: أرفع الدرجات، وعليون: هو اسم لأعلى الجنة، ويعرب إعراب جمع المذكر السالم بالواو رفعًا والياء نصبًا وجرًا، لأنه ملحق به.



الإخلاص

العَمَلُ جسمٌ رُوحُهُ الإخلاص.

إنَّ الجســم متى فارقتهُ رُوحُهُ ـ التي بها قوامُه[1] ـ كان جُثَّةً هامدةً[2] لا حَراكَ فيها، ولا فائدةَ تُرجَى منها، فكذلك العملُ إذا زايَلَهُ[3] الإخلاص.

كم رأينا قومًا يَعْمَلونَ! غَيرَ أنَّنا لم نَـرَ أَثرًا صالحًا لعملهم. وكثيرٌ منهم لم يُوفَّق فيما قَصَدَ إليهِ، فَظَلَّ في شــاطئه، أو خاض منهُ ضحْضَاحًا[4]، ولم يَسْتطِع أن يَصِلَ إلى القَعْر[5] فَنَكَصَ على عَقِبَيهِ[6]، خِرَ النَصَبِ[7] والذَّهبِ.

---

(1) قوام الأمر بكسر القاف: نظامه وعماده وملاكه الذي به يقوم.

(2) الجثة: شخص الإنسان. هامدة: ميتة. وأصلها من همود النار وهو انطفاؤها.

(3) زايله: فارقه.

(4) الضحضاح: الماء القريب القعر.

(5) القعر: الماء الكثير البعيد القعر، والجمع غمار، بكسر الغين.

(6) نكص على عقبيه: رجع.

(7) خسر: شديد الخسران وهو صفة مبالغة. النصب: التعب.

وليس لهذا الأمر من سَبب، إلا أن الإخلاص لم يَكُنَ رائد[1] هذه الفِئة، لأنها لم تَعمَل إلا لجرّ مَغْنم مَذْمُوم أو كَسب شرّف مَوْهُوم.

والسّرُّ في ذلك أنَّ من يَعْمَلُ مُخْلِصًا في عمله لأُمّته ووطنه تَهْوِي[2] إليه أفئدةُ الناس، ويحُوطُونَهُ[3] بالتشجيع والتّحْبيذِ[4]، أو بالمَعونة والتّنفيذ؛ فَيَزدادُ بذلك همّةً ونَشاطًا، وتَنْمُو[5] فيه رُوحُ الجدِّ والمُثابرةِ على العمل.

أمَّا مَنْ يعملُ غيرَ مُخْلِص فإنَّهُ، وإن كَتَم ما يُضْمِرُهُ حينًا من الدهر، لا بُدَّ أن يَنْكَشِفَ عَوارُهُ[6] ويَفْتَضِحَ أمرُه؛ فَيَنْفِرُ منهُ مَنْ كان له مُعينًا، ويُهْمِله من شَجَّعه وحَبَّذَ تَحملَه. وبذلك تَضْعُفُ هِمَّتُهُ، وتَفْتُرُ عَزيمته، فَيَدعُ[7] ما كان يعمله مُضطّرًا، وتكونُ عاقبةُ أمره خسارةَ المادَّة والأدب، ويَعيشُ عيشةً غير راضية.

والأمثال على ذلك كثيرة.

فكم رأينا جَمعيَّاتٍ قامت، فما لبثتْ[8] أن قَعدتَ! وكم شاهَدْنا مَشروعاتٍ نَهضَت، فما مَكَثَت أن سقطَت.

---

(1) الرائد: الدليل والمرشد.

(2) تهوي إليه: تميل إليه. وأصل معناها تسقط.

(3) يحوطونه: يحفظونه ويتعهدونه.

(4) التحبيذ: أن تقول للرجل: «حبذا» مادحًا عمله.

(5) تنمو: تزيد.

(6) العوار: العيب، وأصل معناها. الخرق في الثوب.

(7) يدع: يترك.

(8) لبثت: مكثت.

وتَعدادُ هذه الحـوادثِ يحتاج إلى صَفَحات، لا يَتَّسـعُ لها صَدْرُ هذه العِظات.

فَكُن، أيُّها النَّاشِئُ، مُخْلِصًا في عملك، تَبْلُغُ أقْصَى[1] أمَلِكَ، واحذَرْ أن تَبيـعَ الوِجـدان، بالأَصفـرِ الرَّنّـان[2]، فذلك دأبُ المُنَافقين[3]، الذينَ يَستبدِلُون الدُّنْيا بالدّينِ، والضَّلالَ باليَقين.

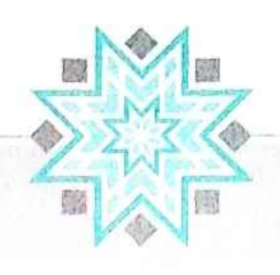
وأُعيذك بالله أن لا تكونَ من المُخْلصين.

* * *

(1) أقصى: أبعد.

(2) الأصفر الرنان: الذهب.

(3) الدأب: العادة.



اليأس[1]

ما اســتولى اليأسُ على أُمَّةٍ إلا أخملها، ولا خامرَ[2] قلوبَ قوم إلا أضعفها.

وناهيكَ[3] بِضَعف القلوبِ مُخمِلاً، فإنهُ أَشدُّ أَلَمًا من مرض الأجسام، وشَرٌّ أَثَرًا من وَقعِ الحُسام[4].

أمَّا الخُمُولُ ـ وهُوَ أثــرٌ مِنْ آثارِ اليأسِ ـ فَقــدْ يَجعَلُ المَرء كالحيــوان الأَعجم، لا يَعرِفُ من هذه الحيــاة إلا ما تَهتدي إليه

(1) اليأس: القنوط وقطع الأمل.

(2) خامر: خالط.

(3) ناهيك: كلمة تعجب واستعظام كما يقال: «حسبك»: وتأويلها أنه غاية فيما تطلبه ينهاك عن طلب غيره. وهي تذكر وتؤنث وتثنى وتجمع لأنها اسم فاعل. تقول: هذا رجل ناهيك من رجل، وهذه امرأة ناهيتك من امرأة، وهؤلاء رجال ناهوك من رجال، ونســاء نواهيك من نســاء، وهذان رجلان ناهياك، وهاتان امرأتان ناهيتاك. وإن وقعت بعد النكرة كانت صفة لها كالأمثلة السابقة. وإن وقعت بعد المعرفة كانت حالًا منها، مثل: هذا عبد الله ناهيك من رجل. وإعرابها في نحو: «ناهيك بعمر عادلًا» ناهيك خبر مقدم، والكاف مضاف إليه، وعمر مبتدأ مؤخر دخلت عليه الباء الجارة الزائدة، وعادلًا حال.

(4) وقع الحسام: شدة ضربته، والحسام: السيف القاطع.

البهائـمُ بالسَّـوقِ الطبيعيّ: مـن التَّمتُّع بالمَطاعم والمَشـارب والمَلذّات.

قد قَـرَنَ اللهُ اليأسَ بالكُفْر بهِ، فـي قوله: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ[1] ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: 87]؛ فانظرْ ما أعظمَ ذَنبَ اليائسين!

وليس هـذا الذَّنـبُ رائنًا[2] علـى قلب مُرتكبه فـي الحياة الكُبرَى[3] فَقط، بل هو يُغَشِّي[4] مُجترمَهُ[5] في هذه الحياة الصُّغرْى أيضًا، إذ لو عَرَضتْ لهُ أمورٌ يَجِبُ أن يقُومَ بأعبائِها[6]، فاستَبطأَ[7] نتائجها، أو استكبر أنْ تكون، لرأَيتَهُ معرضًا عنها إعراضَ الجبان، عن مُنازلة الشُجعان. معَ أنَّهُ لو ثابَرَ على القيام بها، وواظبَ على مُصادمة ما يَعْتورُهُ[8] من العوامل في سـبيل تحقيقها، وثبَت أمامَ العَقباتِ[9] التي دُونَها، فذلَّلهـا بِجِدٍّ جادٍّ، وعزمٍ وقَّادٍ، ونُفُوذِ نَظَرٍ حادٍّ ـ لأَتَتْهُ مُنقادةً[10] إليه، ونال من نتائجها ما يَروم.

---

(1) الروح: الرحمة.

(2) رائنًا: مغطيًا.

(3) الحياة الكبرى:. هي الحياة بعد الحياة الدنيا التي هي الحياة الصغرى.

(4) يغشي: يغطي.

(5) مجترمه: مكتسبه.

(6) الأعباء: الأحمال الثقيلة، ومفردها عبء.

(7) استبطأ الشيء: وجده بطيئًا.

(8) يعتوره: يصيبه وينزل به مرةً بعد أخرى.

(9) العقبات: جمع عقبة، وهي الصعوبة، وأصلها الطريق الصعب في الجبال.

(10) منقادة: طائعة.

ولكنْ هُو اليأسُ، مُهدِّم الآمال، ومُقوِّض[1] أَركان الأَعمال.

لو رَغِبتَ إلى كثير من الناس عندنا ـ ممن يستطيعون القيامَ بعظائم الأَعمال، التي يَعودُ نفعُها على الوطن وأبنائه ـ أن يَقُوموا بأمر من الأمور النافعة، لاعتــذرَ من ذلك بما لا يُقْبَلُ من حُجَّة، وما لا يُؤبَهُ له[2] من اعتذار.

ما عُذرُ مَنْ حُجَتُهُ اليأسُ من نجاح المشــروعات، وبُرهانُهُ صُعوبةُ نَجاحِ الأعمال؟!

ما ذلك، لعَمْــرُ الحقِّ، بِحجَّة، وما علــى قولهم أَثارةٌ[3] من بُرهانٍ صحيح.

ولكــنْ هو اليــأَسُ؛ قاتــل الله اليــأَسَ، وأَقالَ اليائســين عَثَراتِهم[4]، وأَنافَ بهم على يَفاع[5] الأَمَل، وأخذ بأيديهم إلى صالح العمل.

إن اليأس قــد تمكَّنَ من القلوب إلا أَقلَها؛ واســتحكمت[6] حَلَقاتُهُ في النُّفوس، غيرَ نَفْسٍ قد تداركها اللهِ بِبَصيصٍ[7] من نُورِ

---

(1) مقوض: مهدم.

(2) لا يؤبه له: لا يعبأ له ولا يلتفت إليه.

(3) أثارة: قليل. وأصلها: البقية من العلم تؤثر.

(4) أقاله عثرته: نهض به منها.

(5) أناف بهم: رفعهم. اليفاع: التل المشرف، أو ما ارتفع من الأرض.

(6) استحكمت: تمكنت.

(7) البصيص: اللمعان والبروق.

الآمالِ، فأدركت مَغبَّةَ المآلِ[1]، وسعَتْ إلى تحسين الحالِ، لتَجنِي ثمراتِ الاستقبال.

فلا تكونوا، أيُّها الناشئون، من اليائسين، الكُسالى الخاملين.

فما اليأسُ إلا موتٌ في الحياة، وشقاءٌ بعدَ الموت.

فاذَبحُوا اليأس، وقَرّوا البأس[2]، تكونوا من المُفْلِحين.

* * *

(1) المغبة: العاقبة. المآل: المرجع والمصير.

(2) البأس: القوة والشدة.



الرَّجاء

لولا الرَّجاء لَمَا سعى ساعٍ نحوَ أُمنِيَّة[1]، ولا دعا داعٍ إلى وطنيَّة، ولَكانت الحَياةُ أضيقَ من جُحْر الضَّبِّ[2] وأثقلَ على العاتق من القُيود والأَغلال[3].

ما رأيتُ أحدًا يعمَلُ إلا وهو يَعتقدُ أنَّ لِعَمَله أثرًا تُحمَدُ مَغَبَّتُهُ[4]، وتُرجَى فائدتُه. ولا فَرقَ بينَ أن تكون الفائدةُ خاصَّةً بالعامل، أو عامَّةً شاملة، يعُودُ خيرُها على مجموع الأُمَّة التي ينتفعُ بخيراتِها، ويَحْيا في بِيئتِها[5].

غيرَ أنَّ هُناكَ أمرًا هُو كلُّ الأَمر:

ذلك أنَّ قومًا لا يعمَلون إلا إذا اعتقدوا جِدَّ الاعتقاد أن عملَهم مُثمِرٌ لا محالةَ؛ فإن لمحوا شُبهةً في نجاح العمل، ولو

---

(1) الرجاء: الأمل. الأمنية: ما يتمناه الإنسان، وجمعها أماني.

(2) جحر الضب: مأواه. والضب: حيوان بري كفرخ التمساح الصغير.

(3) العاتق: موضع حمالة السيف من الكتف. الأغلال: القيود، والمفرد غل.

(4) المغبة: العاقبة.

(5) البيئة: المنزل والموطن.

كانت أوهــى من بيــت العَنْكَبُــوت، أحجموا[1] عــن الإقدام، وادَّرعوا[2] بالأَوهام. وليــس ذلك من دأبِ الحازمين[3]، ولا من خُلُقِ العامِلين.

وما الدَّاعي إلى إحجامهم إلا ضَعْفُ الرجاء في نفوســهم. وهو مرضٌ من أَمراض النَّفس، يَجِبُ أن يُداوَى بإماتة اليأس، فإنّه داء الاجتماع، وجُرثُومةُ العُمْران المَوبُوءة[4].

فَقْدُ الرجاء داءٌ سارٍ في جســمِ مُجتمعِنا، لذَلك نرى العاملين قَلِيلين، والسُّــعداء في حياتهم نادرين؛ وقد شَــمِلَتهمُ الحَسراتُ، وحاطتهم من شفاء الحياة النَّكَباتُ[5]. ولو عَقلوا لطَرَحُوا بهذا الخُلُقِ الشَّائن[6] الأَرض، واستمسكوا بعُرَى[7] الرَّجاء، وأقدموا على العمل إقدامَ الأشِدّاء، الذينَ يَرَونَ أنَّ في اليأس الدَّاء، وفي الرَّجاء الشِّفاءَ.

وبعدُ: فــإن هُناك قومًا لا يُثبِــطُ[8] هِمَمَهم بُعــدُ الغايةِ التي يَقْصِــدون إليها، ولا يحُــولُ بَينَهم وبين ما يرجُــون ما يَعترِضُ

---

(1) أحجموا: تأخروا.

(2) أدرع الدرع وادرع بها: لبسها.

(3) الدأب: العادة. الحازم: من يضبط أموره ويأخذ منها بالثقة.

(4) الجرثومة: النسمة التي يسمونها المكروب. الموبوءة التي فيها الوباء والداء.

(5) النكبات: المصائب.

(6) الشائن: العائب.

(7) العرى: جمع عروة. وهــي كل ما يوثق به ويعول عليــه. وأصلها مقبض الدلو والكوز ونحوهما، وما يدخل فيه الزر من القميص وغيره.

(8) لا يثبط: لا يعوق و لا يؤخر.

رجاءَهم، ويُصادِمُ آمالَهم، بل يَندفعون اندفــاعَ القَضاءِ المُنْزَلِ، ويُقدِمُونَ إقدامَ الآتي[1] المُرسَــلِ، لا يَلويهم[2] عن أمانِيهم لاوٍ، ولا يَثنِهم ثانٍ، وأولئك هُم القومُ حقًّا، وبهم تَحيا الأُمَّةُ.

هذه الفِئَةُ النَّاهضةُ، تَعلــمُ حق العلمِ أَن رجاءَ الأَعمالِ داعيةُ الإقدامِ عليها، وسبَبُ تَحقيقِ حُصُولها؛ فلا يُقْعِدُهم عنها ضَعْفُ الأَملِ، ولا ضآلةُ نُوره[3].

هي تعتقدُ اعتقادًا لا يَشُوبُهُ[4] شَــكٌّ، ولا يُخالطُهُ ريبٌ، أنَّ الحياةَ معَ اليأسِ موتٌ، وتقولُ معَ القائل: «ما أضيَقَ العيشَ لولا فُسحةُ الأَملِ».

فاجعلوا، أيُّها النَّاشِئونَ، الرَّجاء شِعاركم، والأَملَ دِثاركم[5]. واترُكوا تَثبيطَ المُثَبِّطِيــن، وَليَّ اللاوِين، وثَنْيَ الثَانِين[6]. وكونوا من الرَّاجين الآملين، السَّاعين العاملين. والله لكم مُعِين.

* * *

(1) الآتي: السيل يأتي من بعيد.

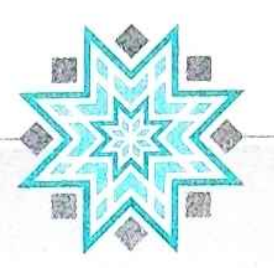
(2) لا يلويهم: لا يثنيهم ولا يصرفهم، وماضيه لوى. ومصدره اللي.

(3) ضآلة النور: ضعفه وقلته.

(4) لا يشوبه: لا يخالطه.

(5) الشعار: العلامة، وثوب يلبس تحت الدثار. والدِثار ثوبٌ يُلبس فوق الشعار.

(6) الثني: مصدر ثناء عن الأمر يثنيه أي صرفه عنه.



الجُبن

بَحَثتُ في طبائع البشَــر، فلم أَجد خُلُقًا من الأخلاق الدَّنيئةِ أَدنى إلى الصَّغار[1] وأقرَبَ إلى الموت في الحياة، من الجُبْنِ.

ذَلك الخُلُقُ، ما تأَصَّلَ في نُفوس قومٍ إلا ضَربَ عليهم الذِّلةَ والمَسْكَنة[2]، فباءوا بالوَضاعة[3] والخُمُول، ثم بالانحلال فالموت.

يُداهِمُ[4] الأُمَّةَ العدوُّ، فَتَجبُنُ عن صدِّ غاراته، وتَفْرَقُ[5] من مُنازَلته، بِما تَرَبَّتْ عليه نُفُوسُ أفرادها من الجُبنِ؛ فَيَجُوسُ خِلالَ الدِّيارِ[6]، ويَكْتَسِحُ[7] البلاد، ويَسْــتَعبدُ الجماعاتِ والأَفراد، فلا يُرى لهُ مِن صادٍّ، ولا لأَفاعيله[8] من رادٍّ.

---

(1) أدنى: أقرب. الصغار: الذل والضيم.

(2) تأصل: تمكنت أصوله وثبتت. المسكنة: الضعف والذل والفقر.

(3) باءوا: رجعوا. الوضاعة: الخسة والانحطاط.

(4) يداهم: يأتي على حين غفلة.

(5) تفرق: تخاف.

(6) يجوس خلال الديار: يدور فيها بالعيث والفساد.

(7) يكتسح البلاد: يستولي عليها ويأخذها.

(8) الأفاعيل: جمع أفعال، ومفرد الأفعال فعل، وأكثر ما تطلق الأفاعيل على الأفعال المنكرة.

ويقوم فيَهـا رَهْطٌ[1] أُولُو فَسـاد، فـلا يَجِدون لهـم أَحدًا بالمرصـاد[2]؛ فَيُهْلِكون الحـرْثَ والنَّسْـل[3]، ويَجْعَلون الأُمَّة كالحيوانات العُجْـمِ. ولـولا داءُ الجبنِ لرَدَّتهم علـى أعقابهم خاسرينَ، وَضرَبتْهم ضَربةً لا تقوم لهم بَعدَها قائمةٌ.

فالسُّكوتُ على عمل من يُريدُ بالأُمَّة السُّوءَ خَلَّة[4] الجُبَناء، ومُناهضةُ[5] الظَّالمِ من دلائل حياةِ الأُمَّةِ؛ فإن حياتَها بما يَنْبَغُ فيها من الشُّجعانِ.

قبيحٌ ورَبِّ الكَعْبة، أن يقوم بينَنا الجاهـلُ في زِيِّ العُلماء، والفاجرُ في مَظهَر الأَتقياء، والخاملُ في صورة النُّبَهاء، والعاجزُ في هَيئةِ القُدَراء[6]، والمَيْتُ في لباس الأَحياء.

وأقبحُ من ذلك أن نُسَـلِّم لهم هذه الدَّعـوَى رِئاءً[7] ونِفاقًا، طَمَعًا في جَرِّ مَغْنَم، أو لَخورٍ[8] في النَّفْس، وضَعْفٍ في الأخلاقِ.

وأَشَـدُّ قُبحًا أن نُدافِع عـن الظَّالم ومن يُرِيد بالأُمَّة الشَّـرَّ، ونَصِفهُ بالخِلال الطَّيِّبة، وحُسن النِّيّة، وصدقِ العمل.

---

(1) الرهط: ما دون العشرة من الرجال. ورهط الرجل: قومه وعشيرته.

(2) المرصاد: الطريق، والمكان يرصد فيه العدو.

(3) الحرث: الزرع. النسل: الخَلقْ والولد والذرية.

(4) الخلة: الخصلة والخُلق، وجمعها خلال.

(5) المناهضة: المقاومة.

(6) القدراء: جمع قدير وقادر.

(7) الرِئاء: التظاهر بخلاف ما في الباطن.

(8) الخور: الضعف، والفتور، والجبن.

إن مثلَ هذا الخُلُقِ الشَّـائن[1] ـ الذي مَصْدَرُهُ الجبن ـ غِشٌّ للأُمَّة، وتَغْريرٌ[2] بها؛ لأنها تَسْتَسلِم إلى من يكون القاضي على حياتها، والهادمَ مَبانيَ اجتماعِها، والمُقَوِّضَ[3] أركان أخلاقها.

فأُعِيذكُم بالله، مَعْشَـرَ الناشـئين، أن تكونوا مـن الجُبناء، السُّفَهاء الأَدنياء؛ فإن الجبنَ داءٌ أَيُّ داء!

عَوِّدوا أنفُسَكم الشَّجاعةَ، تَعتادُوا الإباء والشَّمَم[4]، والصِدقَ في القول، والنَّجاح في العمل.

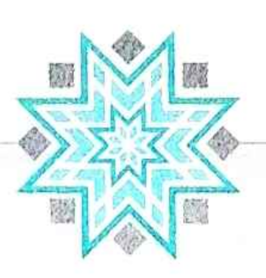
إن الجُبن قد ضَرَّ بالأُمَّة؛ حتى جَعَلها في أَسفلِ الدَّرَكات[5]، فَسَطا عليها الجائر[6]، واستبدَّ بأمرها الجاهل، وغَرَّرَ بها الفاجر. فإن دامت الحال؛ ساء المآل[7].

فلا تأخُذْكم في الحق لومةُ لائم، ولا تُرهِبُكم سَـطوةُ ظالم؛ فإنَّ في الجبنِ الموتَ، وفي الشجاعة الحياة.

إنَّكم سـتكونونَ غدًا آباء، فَكُونوا لأَبنائكـم قُدوةً صالحة، تحيَ بكمُ الأُمَّةُ حياةَ السُّعداء.

---

(1) الشائن: العائب.
(2) غرر به تغريرًا: عرضه للمهلكة.
(3) المقوض: المهدم.
(4) الإباء: الامتناع من كل ما يشين. الشمم: الأنفة وعزة النفس.
(5) الدركات: جمع دركة وهي المنزلة السافلة. وهي في الأصل المنازل كالدرجة للصاعد.
(6) سطا: صال ووثب وقهر. الجائر: الظالم.
(7) المآل: المرجع والمصير.



التَّهور[1]

إذا كان الجُبنُ خُلقًا سافِلاً، ومَثْلَبةً[2] للجَبانِ عظيمة، فالتَّهوُّرُ لا يَقِلُّ عنهُ مَنْقصةً؛ لأنَّ في كِلا الخُلُقين ضَرَرًا لاحِقًا بالإنسان.

الجبنُ في الأعمالِ داعِيةُ الإخفاقِ[3] فيها، والتَّهوُّر في الإقدام عليها قبلَ التَّرويَ سَبَبٌ لعَدم التَّوفيق أيضًا.

رأينا جماهيرَ المُتَحَمِسين يندفعون في أمرٍ من الأُمور، ثمَّ لا يَلَبثون[4] أنْ يَرجِعُوا بِخُفَّيْ حُنَيْن[5]؛ فلا يُوَّفقون فيما اندفعوا فيه. وإنَّ هِمَمَهْم لَتَبْرُدُ بعد قليل من تَحَمُّسِهَم.

ما سِرُّ ذَلكَ؟

إن السِّرَّ واضحٌ لكل مُفكِّر: وذلك أنَّ كل عَمَلٍ من الأعمال، منهُ ما يكون، ومنهُ ما لا يكون. فالعاقلُ من يَتروَّى في الأَمر قبلَ

---

(1) التهور: الوقوع في الأمر بلا مبالاة.

(2) المثلبة: العيب والمنقصة والمسبة.

(3) الإخفاق: عدم الظفر بالمطلوب.

(4) لا يلبثون: لا يمكثون.

(5) رجع بخفَّي حُنين: مثلٌ يُضربُ لمن رجع خائبًا.

الإقدام عليه؛ فإن رأى أَنه مِمَّا يكون، وجَّه عَزيمتَهُ إليه، واندفع نحــوَه، وإن رأى أنهُ ممَّا لا يكــون لم يُضيِّعِ الوقــتَ عَبَثًا في مُحاولة إيجادِهِ.

التَّهوُّرُ ضارٌ. وهوَ كالجُبن في عدمِ حُصُولِ الفائدةِ منه.

فإن رأيتَ رجلًا جارَ عن القَصد[1]، واتَّبَعَ غيرَ سبيل الرشد، فأحجمتَ[2] عن إرشــاده، وجَبُنْتَ عن إبــداء النَّصيحةِ له ـ ظَلَّ ســائرًا في طريق ضَلالهِ؛ فكذلكَ إن أردتَ أن تَصْرِفَهُ بالشــدّة، وتَمْنَعَهُ بالجَبْهِ[3] والقَسوةِ، فلا يُعِيرُ زَجْرَكَ أُذْنًا صَغواءَ[4]؛ بلْ رُبَّما تمادَى في عِناده، وازداد في طُغْيانه[5]؛ فَتضِيعُ بذلكَ الفائِدة التي كنتَ تَتَوخَّاها[6]، والنَتيجَةُ التي تَنْشُدها[7].

التَّهوُّرُ سِــرٌّ عظيمٌ من أسرار الفَشَــلِ في الأَعمال، وإليهِ يَرجِعُ مُعْظَمُ الأســبابِ في ضَياعِ ثَمَرات مَجهُوداتِنا وإفلاتِ الصَّيْدِ من يَدِنا.

---

(1) جار عن القصد: عدل عنه ومال. القصد: استقامة الطريق، والتوسط في الأمور، وهو نقيض الإفراط فيها.

(2) أحجمت: تأخرت.

(3) الجبه: الشدة، وأصل معناه: ضرب الجبهة.

(4) الزجر: المنع والانتهار. صغواء: مصغية.

(5) الطغيان: مجاوزة الحد.

(6) تتوخاها: تتحراها وتسعى إليها.

(7) تنشدها: تطلبها.

فاتقِّ، أَيُّها النَّاشـئُ، التَّهوُّرُ؛ فإنَّه مَدْعـاةُ الخَيْبَة[1] وتَجَنَّبِ التَّسرُّع؛ فإنَّ مَغَبَّتَهُ الزَّللُ[2].

وكُن أُمَّة[3] وَسَطًا[4] تَكُنْ من المُفْلِحين.

* * *

(1) مدعاة الخيبة: السبب فيها.

(2) المغبة: العاقبة. الزلل: السقوط.

(3) الأُمَّة: الجماعة تجمعها حال واحدة. وإنما وصف به الناشئ هنا رجاء أن يكون أُمة بنفسه إن شاء الله.

(4) وسطًا: معتدلاً في الأمور.



الشَّجاعة

مِلاكُ[1] النَّجاحِ في الأَعمال أن يكون في نَفْس العامل شَجاعةٌ تدْفعُهُ إلى العمـــل؛ فلا يرجعُ عنهُ حتى ينالَ مــا يريدُ. ومَا أَفلح العاملون إلا بهذا الخُلُقِ الشَــريف؛ فهو يُمكِّــنُ المُتَخَلِّقَ بهِ من ناصيةِ[2] خَطيرِ[3] الأمور، حَتَّى تُلقِيَ إليهِ صعابُها بالمَقاليد[4].

الشَّجَاعةُ هي الحَدُّ الوَسطُ بينَ رَذيلَتي الجُبنِ والتَّهوُّر؛ فَفي الجُبنِ تفريطٌ[5]، وفي التَّهوُّرِ إفراطٌ[6]، وفي الشَّجاعةِ السَّلامَةُ.

الشَّجاعةُ أَن تُقْدِمَ حَيْثُ تَرَى الإقدامَ عَزْمًا، وتُحْجِمَ[7] حيثُ تَرى الإحجامَ حَزْمًا[8].

---

(1) ملاك الشيء: نظامه وقوامه الذي به يقوم.

(2) الناصية: مقدم الرأس، والتمكن من ناصية الأمر: كناية عن الاستيلاء عليه.

(3) الخطير: العظيم.

(4) المقاليد: المفاتيح، ومفردها مقلاد.

(5) التفريط: التضييع والتقصير.

(6) الإفراط: مجاوزة الحد.

(7) تحجم: تتأخر.

(8) الحزم: ضبط الأمر والأخذ منه بالثقة.

وهي قِسمانِ: شجاعةٌ أدبيَّةٌ، وشـجاعةٌ مادِّيةٌ؛ وكِلتاهُما من ضَرُوريَّاتِ الحياةِ.

فالثَّانيةُ يَدْفعُ بها المرء عن وطنه وعن نَفْسـهِ عواديَ[1] من يُريدُ بهما السُّوءَ؛ ويُكافحُ الأَعداء[2] في سبيل تعزيز الأُمَّة، إلى أن يقضيَ اللهُ أمرًا كانَ مفعولًا. فإن انتصر ألبَسَ الوطنَ مَطارِفَ[3] الشّرفِ، وحلَّي جِيدَهُ[4] بعقُود الفَخْر. وإن لم يوَّفق فِيما قَصَدَ إليه كان له أَجرُ العامل المُخْلِص.

والأُولى يَرُدُّ بها الظالَم عن ظُلمِهِ، والغـاويَ[5] عن غَيِّهِ؛ ويُرْشِد الأُمَّة بالعِظَةِ النَّاجِعَةِ[6] إلى السَّبيل القويمة لِتَسلُكها، والطريق اللاحِب[7] لتَمْشِيَ فيهِ.

فإن فُقِدَتْ هذهِ الشَّجاعةُ تمادَى الجائِرُ[8]، وازداد ضَلالُ الضَّالِّ، ومَشَتِ الأُمَّةُ في غير مَنْهَجِ[9] الصَّواب، فَكانتِ العاقِبةُ شرًا.

---

(1) العوادي: النوازل.

(2) يكافح: يقاتل، والمكافحة استقبالك العدو في الحرب وجهًا لوجه ليس دونكما ترس أو غيره.

(3) المطارف: جمع مطرف ـ بكسر الميم وفتح الراء ـ ومطرف ـ بضم الميم وفتح الراء ـ وهو رداء من الحرير مربع ذو أعلام.

(4) الجيد: العنق.

(5) الغاوي: الضال.

(6) الناجعة: النافعة.

(7) اللاحب: الطريق الواضح المسلوك.

(8) الجائر: الظالم.

(9) المنهج: الطريق الواضح.

وإن اضمحلَّت تِلْـكَ[1] كانت البلادُ نَهْبًا مُقسَّـمًا؛ يُصاح في حَجَراتِها[2]، فلا يُلفى لِلصَّائِحِ مُسْكِتٌ. ويُعاثُ[3] في أكنافها[4]، فلا يُرَى لِلعائثِ من رادٍ. وهُناكَ الطَّامَّـةُ[5] الكُبرى، التي تَجْعَلُ أَفرادَ الأُمَّةِ عِبيـدَ العَصا، والبَليَّةُ العُظمَى التي تَجتـاحُ[6] مُمَيِّزاتِ تلك الأُمَّة، وتَقَضِي على حياتها الاستقلاليَّة، حتَّى تَجْعلَها كأَمْسِ الدَّابِر.

هذا إن جَبُنَت الأُمَّةُ جُبنًا مَعْنَويًا أو ماديًا.

وإن تَهَوَرت في الدفاع، ففي الغالب أَن يُصِيبها ما أصابها في حال جُبنها؛ لأَنَّها، إن أقدمت على المُصادمة قبلَ أن تأخُذ للأَمر أُهبَتَهُ[7] ولِلكِفاحِ عُدَّتهُ، كانت النتيجة شرًا أيضًا.

فإن قِيلَ: إن كان لا بـدَّ من أحدِ أمرينِ: التَّهـوُّرِ أو الجبن، فأيُّهما خَيرٌ للأُمَّة؟

فالجوابُ على هذا أنْ ليس وراء الجُبنِ خيرٌ قطُّ، وأمَّا التَّهوُّرُ فَقَدْ يَنالُ صاحبُه ما يُريد.

---

(1) اضمحلت: ذهبت وانحلت وتلاشت. والإشارة بتلك إلى الشجاعة المادية.

(2) الحجرات: بفتح الحاء والجيم: النواحي. والمفرد حجرة بفتح الحاء وسـكون الجيم. وقولهم: «دع عنك نهبًا صيح في حجراته» هو مثل يضرب لمن ذهب من ماله شيء ثم ذهب ما هو أجل منه وأعظم.

(3) يعاث: يفسد. والعائث: المفسد.

(4) الأكناف: الجوانب والضواحي. والمفرد كنف، بفتح الكاف والنون.

(5) الطامة: المصيبة التي تطم أي تقوى حتى تغلب.

(6) تجتاح: تستأصل وتمحو.

(7) الأهبة: العدة.

والسَّــلامةُ من ذلك أن تُربَّى في الأُمَّة رُوحُ الشجاعة، فهي الحِصنْ الحصين[1] والمَعْقِلُ[2] الأمين.

فبالشَّجاعة، مَعشَرَ النَّاشئين، تخلقوا، وبِحَبلِها اعتَصِمُوا، ولا تدَعُوا لِمــرَضِ الجبن، وإبليسِ التَّهوُّرِ إلى قُلوبكم ســبيلاً؛ فإن الجبنَ من البَــلادة، والتَّهوُّرَ من الحُمُق، والشــجاعة من أخلاق المُؤْمنين.

* * *

(1) الحصين: المنيع.

(2) المعقل: الملجأ.



المصلحة المرسلة[1]

دخلَ أعرابيٌّ على هِشامِ بنِ عبدِ المَلِك، فقال: «يا أمِيرَ المُؤمِنين، أتت علينا ثلاثة أعوام: فَعامٌ أذابَ الشَّحْم، وعامٌ أكلَ اللحم، وعامٌ انتَقَى العَظَم[2]؛ وعندَكم فُضُولُ أموال، فإن تَكُن لله فَبُثُّوها[3] في عباد الله، وإن تكن للناس فَلِمَ تُحْجَبُ[4] عنهم؟! وإن كانت لكم فَتَصدَّقُوا بها، إنَّ الله يُحِبُّ المُتَصَدِّقينَ». قال هِشام: «هَل من حاجةٍ غير هذهِ يا أعرابيُّ؟» قالَ: «ما ضَربتُ إليك أكبادَ الإبِل[5]، أدَّرِعُ الهَجِيرَ[6]، وأَخوضُ الدُّجا[7]، لخاصٍّ دُونَ عام».

فأمرَ له هِشامٌ بأموالٍ فُرِّقَت في الناس، وأمرَ للأعرابيِّ بمالٍ فَرَّقَهُ في قومه.

---

(1) المصلحة المرسلة: هي التي يقصد بها النفع العام.
(2) انتقى العظم: أخرج نقيه أي مخه وهو ما في داخل العظم من الدسم.
(3) بثوها: فرقوها.
(4) تحجب: تمنع.
(5) ضربت إليك أكباد الإبل: رحلت إليك من مكان بعيد.
(6) أدرع الهجير: ألبسه كالدرع. والهجير: شدة الحر.
(7) الدجا: سواد الليل. وإدراع الهجير وخوض الدجا مجاز عن السير فيهما.

إنَّ لهذا الأعرابيِّ، أيُّها الناشئ، نَفْسًا كبيرة، ووِجدانًا صحيحًا، وغَيرةً على قومه وغير قومِه عظيمــة، وذلك ما دَعاهُ ألا تكون له الأَثَرةُ[1] بالخير دُونَ سِــواه؛ لأنَّهُ عَلِمَ عِلــمَ اليَقينِ أنَّ حياةَ الفَردِ حياةَ السَّعادةِ، وقَومُهُ في الشَّقاء، لَهِيَ حَياةُ الذُّلّ، وعِيشةُ البُؤس[2].

كيفَ يَرضى العاقلُ أن يكون في بُحْبُوحةٍ[3] من الخير، ومن يُحِيط به من الناس في ضَنْك[4] العيش؟!

بل كيف لا يأنفُ[5] أن يَرى الشَــقاء قد عــمَّ الأُمَّة وهُو لا يَعبــأُ[6] بما يَعتريها مــن الآلام، ولا يأْلَــمُ لِمَا فــي أفئِدتها من السهام[7]؟!

إن ذلــك لَمِنْ ضعف الشُّــعُور، ومــوتِ الوجِدان، وفســادِ الأخلاق! وإنَّ من يَرضى بذلك، ولا يَشعُرُ بما يُصيب المجموع، لهُوَ مــن البهائم، التــي لا تَعرفُ مــن الحياة إلا اللَّهْــو والطَّعامَ والشَّراب.

وأكثرُ بِهِيمِيَّة منهُ، وأَشدُّ وَطأَةً[8] على الحياة الاجتماعيَّة، مَن

---

(1) الأثرة: الاستئثار والاستبداد.

(2) البؤس: الشقاء والشدة.

(3) البحبوحة: السعة، ووسط الشيء.

(4) ضنك العيش: ضيقه.

(5) لا يأنف: لا يستنكف.

(6) لا يعبأ: لا يبالي.

(7) السهام: النبال والمفرد سهم.

(8) الوطأة: الضغطة والدوسة، ويراد بها الشدة.

يَسعى لمصلحته الشخصيَّة سَعْيَها، وهُو يَعلمُ أنها السَّهمُ النّافذُ في صَميم[1] المصلحةِ العامَّة، والقضاء المُبرَم[2] على حياة المجموع!

إن مِثْلَ هؤلاء الناسِ عِــبءٌ[3] ثَقِيل على المُجْتَمَع، ومرَضٌ وبيل[4] في جسم الاجتماع.

ألا يَدري من كان على هذه الشاكلة أنَّ عَمَلَهُ يعود عليهِ بالخسران!

ألا يعلم أَنَّه فردٌ من أفراد الأُمَّةِ التَّي سَعَى للضَّرر بها!

ألا يَفْهَمُ أنَّ ضَرَرَ المجموعِ يعود على الفرد!

أمْ يَظُنُّ أنه ناجٍ من سُوء عمَله، مُتَفَصٍ[5] من عاقبة شَرّه!

إن ظَنَّ ذلك فقد ظَنَّ باطــلًا، لأَنَّنا لم نَرَ أحــدًا يَضُرُّ الأُمَّة لمنفعة نفْسه إلا عاد عليه عمَلُهُ بالضَّررِ المُبينِ. والأمثلةُ على ذلك أكثرُ من أن تُحصى.

إلا إنَّ هُناك قومًا قد ضرب اللهُ بَيْنَهم وبين الحقِّ بِسُورٍ ظاهرهُ فيه الرَّحمةُ، وباطِنُهُ من قِبلهِ[6] العَذابُ؛ فهم يَعْمَلون على خَضْد شَوْكة[7] الأُمَّة، وإضعافِ بأسِــها[8]، وإضاعة حَقِّها، وإبقائِها في بيئة الخُمولِ

---

(1) الصميم: العظيم الذي به قوام العضو.
(2) القضاء المبرم: الذي لا مردّ له.
(3) عبءُ: حمل.
(4) وبيل: شديد.
(5) متفص: متخلص متملص.
(6) من قبله: من جهته.
(7) خضد الشوكة: كسرها وقطعها.
(8) اليأس: القوة والشدة.

والاستكانة[1]. وما لهم في ذلك من فائدة، وليس لهم من عائدة[2] إلا ما يَنالُهُم من ثناء حاكم، أو بشاشتهِ في وُجوههم! وإن نالتهم فائدةٌ مادّية، فهي لا تُسـمِنُ ولا تُغني من جُوع. وإنما هو النِّفاقُ والرياء، يَدْفَعان بِمِثل هـؤلاء الناسِ إلى تَحبيذ أعمال أهـل الأَثَرَة! ولَيْتَهم يَحْسَبُون أَنَهم يُحْسِـنُون صُنْعًا؛ بل هُم يَعْلَمون كل العلمِ أنهم وراءَ إسقاطِ الأُمَّةِ ساعون، ونحوَ ما يُخْمِلُ ذِكرَها سائِرون، وعلى ما يُمِيتُها عاملون، فهمُ الضَّالُّون المُضِلُّون، وأولئِك هُم شَرُّ البَرِيَّة[3].

فَتَجَنَّبُوا، مَعْشَـرَ النَّاشِـئين، أعمالَهم، وقُوا أَنْفُسَـكم مَعَرَّة أفعالهم[4]، ولا تكونوا من الفِراسيِّينَ[5] القائلين:

مُعَلِّلتي بالوَصْلِ، والموتُ دُونَهِ إذا مِـتُّ ظَمآنًا فلا نَـزَلَ القَطرُ

بل كونوا من المَعرّيين[6] المُنادين:

فلا هَطَلَـتْ عَلَـيَّ ولا بأَرضِي سَـحائِبُ ليس تَنتظِمُ البِلادا[7]

تكُونوا مِمَّن هُديَ الصِّراطَ المُستقيم[8].

---

(1) البيئة: المنزل. الاستكانة: المسكنة والذل.

(2) العائدة: المنفعة، وما يوصل به الإنسان من معروف.

(3) البرية: المخلوقات.

(4) قوا: احفظوا. المعرة: السوء، والإثم والجناية.

(5) المراد بالفراسـيين: دعاة المنفعة الشـخصية، نسـبة إلى أبي فراس الحمداني الشاعر المشهور ابن عم سيف الدولة قائل هذا البيت.

(6) المـراد بالمعريين دعاة المنفعة العامة، نسـبة إلى أبي العلاء المعري الشـاعر الفيلسوف العربي الشهير قائل هذا البيت.

(7) السحائب: الغمام الممطر، والمفرد سحابة. تنتظم البلاد: تعمها وتنفذ إلى جميع أقطارها.

(8) الصراط المستقيم: الطريق المعتدل الذي لا عَوَجَ فيه.



الشَّرف

نَظَرتُ في أَخلاق النَّاس، ونَقَّبت عن نُفُوسهم، فلم أرَ نَفْسًا لم تَدَّعِ الشَّرَف.

سَل العالمَ والجاهل، والصَّالح والطَّالح، والمُخْلِص والمُنافِق، وكلَّ مَن اتصفَ بِخَلَّةٍ[1] حَمِيدة أو ذَمِيمة، يُجبْك أنَّه شريفُ النَّفْس.

لكلِ إنسانٍ أن يَدَّعيَ هذه الدَّعوى؛ غير أنَّهُ ليس لكل إنسانٍ أن يُصدِّقها، ما لم يُحَقِّقِ الخبرَ الخُبْرُ[2]؛ وإلا اختلَطَ الحابِلُ بالنَّابِل[3]، والفارس بالرَّاجِل[4].

يَزعُمُ كثيرٌ من النَّاس أنَّ الشَّرف إنما هو عند الإنسانِ من الثَّروة وبقَدرِ ما لَدَيهِ منها يَختالُ[5] عُجْبًا، ويِميسُ[6] فخارًا. فهوَ يَحْتَقر الضُّعفاءَ، ويَزْدَري الفُقراءَ.

---

(1) الخلة: الخصلة والجمع خلال.

(2) الخبر بضم الخاء: الاختبار.

(3) الحابل: الصائد بالحبالة وهي الشبكة، والنابل: الرامي بالنبل.

(4) الفارس: الراكب الفرس؛ والراجل: الماشي على رجليه.

(5) يختال: يتكبر ويتبختر.

(6) يميس: يتمايل عجبًا.

ومن الغريب أن يَجدَ هذا الشّــريفُ الواهمُ نُصَراء، يَرفَعُون من مَقامه، وأذِلاء يسْجُدون أمامَ قدَمَيْه؛ ورُبَّما لا يَنالُهم من عملهم هذا ما يَستعينون به على سَدِ عَوَزِهم[1]، وإصلاح مَعايِشِهم. وإنما هُوَ النِّفاق أو الذُّلُّ. وما ذلك إلا من فسادٍ في تربيتهم ومَرَضٍ في أخلاقهم.

ولوْ يَعلَم من يَدَّعي الشَّرَفَ ـ لِوُفورِ[2] ثروَتِهِ ـ أنَّهُ إنْ يقلِبْ لهُ الدَّهر ظَهْرَ المِجَن[3]، ويُكَشِّر لهُ الزَّمانُ عن نابهِ، فَيُصْبِحْ فقيرًا بعد الغِنَى، مُحتاجًا بعدَ الثَّروة، يَخْفِضْهُ من كان لهُ رافعًا، ويَنأَ عنه من كان منه دانِيًا[4]، لَأقلَعَ من الفَخار، ولبسَ غيرَ هذا الدِثار[5].

ويَظُنُّ آخروُن أنَّ الشرَف هو ما أوتِيَ[6] الإنسانُ من قُوَّةٍ في بدنه؛ فهو يَحتقر الضُّعفاء، وإن كان لَدَيهم من العقل ما يَطُولُون به الجَوزاء[7].

ولو عَلِمَ أن الأَسَدَ أَجرأُ منه وأقوى، وأَنَّ الجَمَلَ أَصلَبُ عُودًا، وأضخَمُ جِسمًا، وأروعُ[8] هَيئةً، فهُما أولى منه بِذلك، لرَجَعَ عمَّا يَدَّعيهِ صاغرًا، وترَكَ الفَخار بالقُوَّة والبَطش.

---

(1) العوز: الحاجة.

(2) الوفور: الكثرة.

(3) قلب له الدهر ظهر المجن: تغير عليه أو أساء إليه. والمجن: الترس. وهذا مثل يُضرب لمن ساءت حاله بعد الصلاح.

(4) ينأ: يبعد. دانيًا: قريبًا.

(5) الدثار: الثوب.

(6) أوتي: أعطي.

(7) يطولون: ينالون. الجوزاء: برج في السماء.

(8) أروع: أعجب وأفزع.

ويَخالُ قومٌ أنَّ الشــرَف يشــفَى المَرءُ بِمرَض الأُمَّة، ويَحْيا بموتهــا، ويقــوَى بضَعْفها، ويَرتفــعَ بانحطاطها، ويَعِــزَّ بِذُلها، ويَمْجُدَ[1] بِسفالتها.

ولو فَكَّرُوا قليــلًا لَعلِمُوا أنَّهم مُخطِئُون، وفــي غُرُورهم[2] يَعْمَهون[3]. فالشَريفُ إنَّما يَشرُفُ الأُمَّة، ويَحْيا بِحياتها، فإن هانَت هانَ، وإن ماتَتْ مات.

إنَّ الشَّرفَ الصَّحيح، والمَجْدَ الرَّجِيحَ[4]، لا يَكُونان إلا لِمَن توفرَّفت[5] فيهِ المُرُؤَة[6] والشهامة[7] وطَهارة الوِجدان، ونالَ قِسْطًا من العلم، ونَشَــطَ الدَّاعين إليه. فَمَنْ فعل ذلك فهو مِمَّن طابت سَريرتُهم[8]، وزكَت بينَ الناسِ سِيرتُهم[9].

هَيْهاتَ[10] أن يكون شــريفًا ماجدًا، من كان جاهلًا سفيهًا،

---

(1) يمجد: يشرف.

(2) الغرور: الباطل، وتزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب.

(3) يعمهون: يتحيرون ويترددون في الضلال.

(4) الرجيح: الرزين.

(5) توفرت: كثرت واتسعت

(6) المرؤة: النخوة، وكمال الرجولية، وهي مجموعة آداب نفسانية تحمل مراءاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات.

(7) الشهامة: الحرص على مباشرة أمور عظيمة تستتبع الذكر الجميل.

(8) السريرة: ما يسره الإنسان ويكتمه خيرًا كان أو شرًا. وفلان طيب السريرة: سليم القلب صافي النية. والجمع سرائر.

(9) زكت: طابت وصلحت. السيرة: ما يسير عليه من الأعمال.

(10) هيهات: اسم فعل ماضٍ بمعنى بَعُدَ، مبني على الفتح. ويجوز بناؤه على الكسر أيضًا.

يَزْدَرِي النُبهــاء، ولا يُبالي العُقلاء، ولا يأْبَــهُ للعُلماء[1]، ويَكرَهُ لأُمَّته الارتقاء.

ليس من الشَــرَف والوَجاهة في شيءٍ من يَســتَبدُّ بِمَرافق[2] الأُمَّة، ويَستأثرُ بِمَنافعها[3]، ويَحْقِرُ[4] مجموعَها، ويَهْدِمُ كِيانَها[5].

الشّريفُ مَنْ يَخْدُمُ الوَطنَ خِدمَةً صحيحةً تُعلي شأنَه، وتَرفَعُ من مَكانته، ويَهُونُ[6] في سَبيل إعزازه، ويموتُ بُغيَةَ إحيائه.

هذا هوَ الشَّرفُ الحقُّ، معشَرَ النَّاشِئين. فاعتَصِموا[7] بِحَبله؛ فإنهُ حَبْلُ اللهِ المتين؛ الجئُوا إلى حِضْنهِ؛ فإنه حِصنُ اللهِ الحَصين.

إنَّ الوطن يَدعُوكم إلى خِدمته، فأجِيبوه؛ والأُمَّة باسطةٌ إليكم أيدِيَها، فمُدُّوا إليها أسبابَ[8] النُهُوض؛ وأَعِنُوها منكم بقُوَّةٍ، تَحيَا بِكم حياةً طَيّبة، وتَرْقَ إلى أعلى عِلّيين[9].

* * *

(1) لا يأبه: لا يكترث ولا يبالي.

(2) المرافق: المنافع.

(3) يستأثر بمنافعها:يستبدّ بها ويخصّ بها نفسه دون غيره.

(4) يحقر: يحتقر.

(5) كيان الأمر: ما يكون عليه.

(6) يهون: يذلّ.

(7) اعتصموا: تمسكوا.

(8) الأسباب: الوسائل. وأصل معناها الحبال. والمفرد سبب.

(9) أعلى عليين: أعلى المراتب. وعليّون هو اسم لأعلى الجنة.



الهجعة واليقظة[1]

للأُمم، كما للأفراد، هَجَعاتٌ ويَقظَاتٌ:

فتارةً تَتَغلَّبُ عليها الأُولى فتُخْمِلُها، وطَوْرًا تَهِيجُها[2] الثانيةُ فَتُنَبِهُها. وقد كان هـذانِ العاملان، ولم يَزالا، في تنازُعٍ وخِصام، ولم يَكُنْ، ولا يكونُ بَيْنَهما سَكينةٌ وسلام؛ ذَلكَ لأنَّهما ضِدَّان. والضِدَّان لا يجتمعان.

وإنَّ لهـذه الغَلَبة أَسبابًا وعللًا، رُبَّما اختلَفَت في الظَّاهر ولكِنَّها مُتَّفِقةٌ من حيثُ الحقيقة؛ إذ إنَّها تُنْتَجُ نتيجةً واحدة، هيَ تَنْبيهُ الأُمَّةِ أو إخمالُها. ويَختلِفُ التَّنَبُهُ أو الخمولُ، قُوَّةً وضَعْفًا، باختلاف أَسبابها المؤثرة في نُفُوس الأُمم، التي انتشرت فيها تلك العِلَلُ أو الأسباب.

أمَّا الأَسبابُ التي تَجعَلُ الأُمَّة خاملةً مُتَقَهْقِرةً[3] ساقِطة، فَهيَ كَثِيرَةٌ:

---

(1) الهجعة: الغفلة. واليقظة: التنبه.

(2) تهيجها: تحركها.

(3) متقهقرة: متأخرة راجعة إلى الخلف.

منها جُمودُ كثيرٍ من عُلَماء الأَديان، ووُقُوفُهم سَــدًّا مِنِيعًا أمامَ تيَّارِ الأُمَّةِ المندفعة إلى التَّقدُّمِ، لِتَكُون من كُبْرِيَات الأمم الحيَّة. ومنهم من يَتَّخِذون الدِّينَ وســيلةً لمَآرِبهم، وشَرَكًا[1] يَصطادون به عُقُول العامَّة، ليُرجِعُوهم عن نُصرة المُصلِحين، ومُتابعــةِ عُلَماء الكَــوْنِ والاجتِمــاع؛ فيُكَفِّرُون ويُفَسِّــقُونَ، ويُحلِّلُونَ ويُحَرِّمُونَ، ورُبَّما دِماء الأَبرارِ[2] يُبيحُون. وما ذلك إلا نتيجةٌ من نَتائجِ جَهْلهــم أو غُرورهم أو ضَعْفِ أخلاقِهم، أوَ كانوا يَعلمون.

ومنها اســتِبدادُ الرُّؤَســاء وأربــابِ النُّفُوذِ، وظُلــمُ الحُكَّامِ واضطِهادُهُم[3] من يُرِيدُ أَن يَنْهَضَ بالأُمَّةِ من دَرَكاتِ[4] السَّــفالةِ وهُوَى[5] الجهــلِ وأخادِيدِ[6] الخمولِ، إلى مُسْــتَوى[7] الفضيلَة والعلم والتَّنَبُّه.

وهُناك أسبابٌ أُخَرُ لا يَسَــعُ المَقامُ ذِكرَها. وهي، مَعَ ما تَقَدَّمَ من الأسباب، تُخمِلُ الأمَّة، وتَسُوقُها إلى مَجازِرِ[8] الهَوانِ والتَّأخُّر.

---

(1) الشرك: المصيدة.

(2) الأبرار: الأخيار المحسنون.

(3) الاضطهاد: القهر والإيذاء.

(4) الدركات: جمع دركة، وهي المنزلة السافلة.

(5) الهوى: جمع هوة وهي الحفرة العميقة، وما بين الجبلين.

(6) الأخاديد: جمع أخدود وهي الحفرة المستطيلة في الأرض.

(7) المستوى: المستقر.

(8) المجازر: جمع مجزر، وهو مكان الجزر أي الذبح.

فتلك هي حالةُ الأُمَّةِ في هجَعاتها، وهذه هي الأَسبابُ التِي تجعلُها قَيْدَ سُلطانِها[1].

وأمَّا حالتُها في يَقَظاتها، فهيَ على غير ما تَقدَّمَ، لأَنَّها تكُونُ، إذ ذاكَ، أُمَةً رفيعةَ الشأن، سـامية المَقام، عَزيزة الجانب، مَنيعة الحِمَى[2]، جَهْوَرِيَّةَ الصَّوْتِ[3] مُمْتَدَّةَ السُّلطة.

ولا تكونُ على هذه الحالةِ إلا إذا تَقَدَّمَتْها أسبابٌ تَوصِلُها إلى الغاية التي ذَكَرْناها.

وانَّ هذه الأَسبابَ كثيرةٌ أيضًا:

منها نُبُوغُ[4] أفرادٍ في الأُمَّـة، يُؤْلِمُهُم بقاء أُمَّتهم في الجهل والخُمول والسُّـقوط؛ فَيَبُثُّون[5] في الأُمَّة رُوحَ الهِمَّة والنُّفْرة مِمَّا يَضُرُّ بها، ويُوقِدون فيها نارَ العزيمة والاستِعدادِ لِمَعالي الأُمور؛ حتى إذا تهيَّأَ لهم ما يُريدون حَمَلُوا الحكومة ورجالَ الاسـتبداد بالأَمرِ، من العُظماء والرُّؤَساء وأربابِ النُّفُوذ، على تغْيير الحالةِ الاجتماعيَّة الفاسدة، واستِبدالِ غيرِها بها. وبذلك تُزالُ البَرازِخُ[6] التي تَحُولُ دون تَرقِّي الأُمَّة.

---

(1) القيد: حبل ونحوه يجعل في رِجل الدابة يمسـكها. وفلان قيد فلان أي هو في قبضته. السلطان: السلطة والتسلط.

(2) الحمى: ما يحميه الإنسان من شيء.

(3) جهورية الصوت: مرتفعته، نسبة إلى الجهورة. والجهور: العالي الصوت كالجهوري.

(4) النبوغ: الخروج والظهور في عظمة وشأن. والنابغ والنابغة: العظيم الشأن.

(5) يبثون: ينشرون. والبث النشر.

(6) البرازخ: الحواجز، والمفرد برزخ.

ومَتَى تَــمَّ لهم ذلك أدركــوا أَنهم قدِ اجتازُوا[1] في ســبيل الإصلاح عَقَبَةً ليســت بِشــيءٍ بالَنِسبة إلى ما سَــيَعترضُهم من العَقَبات؛ لأنَّ إزالةَ الظُّلمِ والاســتبدادِ وتَغْييرَ نِظامِ الاجتماع لا يَكْفِيان لرَفْعِ الأُمَّة، إن بَقِيَتْ جاهلةً خاملة؛ فإنَّ جَهْلَ الأُمَّةِ أَشَدُّ وطأةً[2] من ظُلم الحُكُومة، وإنَّ خُمولها عَقَبةٌ كَؤودٌ[3] في ســبيلَ جَعْلِها أُمةً حَيَّةً يُشار إليها بالبَنانِ[4]. وهذهِ العَقَبَةُ أَشَدُّ اعتراضًا من عَقَبات المستبدِّين، ورجالِ الدِّين الجامدين.

ومتَى أدركَ النَّابغُونَ من الأُمَّة ذلك فَكَّرُوا في الوسائل التي تُزيلُ حِجابَ الخمولِ والجهل عنها، وما هي إلا إيقادُ نيران الثَّورةِ الأدبيَّة[5]، التي تَلتهِمُ[6] أَخلاقَها الفاسدة، وعاداتِها الضَّارَّة.

ولا دَواءَ أنجَعُ[7] في هذه الثَّورة من انتشــار الجرائد الحُرَّة الصادقة، التــي لا تَبيعُ الشــرَفَ والوجدان بدُرَيْهِمــاتٍ يأكُلها أصحابُها ظُلمًا وسُــحتًا[8]. ومن ذلك أيضًا انتشارَ الكُتُبِ النافعة

---

(1) اجتازوا: قطعوا.

(2) الوطأة: للشدة. والضغطة والدوسة.

(3) العقبة: الطريق في الجبل. والعقبة الكؤود: الشاقة الصعبة المرتقى.

(4) البنان: الأصابع أو أطرافها. والمفرد بنانة.

(5) اقرأ العظة الآتية.

(6) تلتهم: تبتلع.

(7) أنجع: أنفع.

(8) السحت: الحرام أو ما خبث وقبح من المكاســب فلزم عنه العار كالذي يؤخذ رشوة أو خداءً أو نحوهما.

بين طَبَقاتِ الأُمَّة. ورُبَّما كان لها في بعض الأَحايِينِ تأثيرٌ عظيمٌ أشدُّ من تأثير الجرائد.

فَعلَى المُفكِّرين أن يُكثِروا من نشْر الكُتُب النافعة، التي تُوقِظ شُعُورَ الأُمَّة، وتُنَبِّهُها من هَجَعاتها؛ وأن يَعضِدُوا الصَّحائِفَ الوطنِيَّةَ الصَّادِقَة، والمجلاتِ المُفِيدة النافِعة، وذلك بترغيبِ الأُمَّةُ فيها، والسَّعي لتكثير سَوادِ[1] من يَبتاعُها[2]؛ لِتسيرَ الأُمَّة في سبيل المجد، وتَسْلُكَ طَرِيق السَّعادة.

فَتَنبَّهو، رَعاكُمُ الله مَعشَرَ النَّاشئين، ولا تكونوا من الخاملين، واقرأوا من الصُّحُفِ أَشَدَّها وطنيَّة، ومن الكُتُبِ أسماها مَوضُوعًا وأُسلوبًا، تكُونُوا من السُّعَداء.

* * *

---

(1) السواد: الجماعة، والعدد الكثير.

(2) يبتاعها: يشتريها.



الثورة الأدبية

الأُمَمُ في حال مرضها الاجتماعيّ تكونُ حاجتُها إلى إصلاح ما فَسَـدَ فيها من الأَخلاقِ، وتقويمِ ما اعوجَّ من فُرُوع الاجتماع، أكثرَ من حاجة المريض إلى الدَّواء.

يَمْرَضُ إنسانٌ فيَلجأُ أَهلُهُ وذَوُوهُ إلى طبيب يَثِقُون به؛ فَيَصِفُ له من الأَدوية ما يراهُ مُفيدًا له.

وتَمرَضُ الأُمَّة جَمعـاء، إلا مَن رَحِمَ ربُّـك، فلا تلجأُ إلى طبيب الاجتماع لِيُداويَ أمراضها؛ ويُخَفِّفَ أَوصابَها[1]، وُيخلِّصَها مما أصابها.

وذلك ناشـئٌ من أحد أمرين: أمَّا جَهْلِها بدائها؛ فَتظُنُّ ـ وهي على وَشْـك الموتِ بمـا يَفْتُكُ فيها مـن الداء ـ أَنَّها سـليمةٌ من الأَمراض، نَقِيَّةٌ من الأَوصاب؛ وإمَّا أَنَّها تَدري كلَّ الدِّرايةِ ما فيها من الآلام، وما يَعْتَورُها[2] من الأَدْواء[3]؛ غيرَ أَنَّها لا ثِقَة لها بما يُحيطُ

(1) الأوصاب: الأمراض. والمفرد وصب، بفتح الواو والصاد.

(2) يعتورها: ينزل بها مرة بعد أخرى.

(3) الأدواء: جمع داء.

بها من الأطِبَّـاء؛ أو أنها اعتراهـا[1] ما مَنَعَها التفكُّـرَ في طَلَب الطبيب.

وتُرسِـلُ الأُمَّةُ كثيرًا من أبنائها إلى مدارس الطب، لِيَطُبُّوا[2] بعدَ تَعلُّمهم، أجسامَها. ولا تَبْعَثُ بأَحدٍ منهم، إلا القليلَ النَّادر، إلى مدارس الأَخلاق والاجتماع، لِيُداووا، بعدَ تَربيتهم، أخلاقَها، ويُهذِّبُوا نظامَ اجتماعِها. وما ذَلكَ إلا من فساد النُّفوس التي تُقَدِّمُ الماديَّاتِ على الأدبيَّات.

الأُمَّةُ في حاجةٍ إلى القسـمين من هؤلاء المُتَعلِّمين؛ ولكن حاجتَها إلى أطبَّاء الاجتماع، وحُكَماء الأخلاق، أكثرُ من حاجتها إلى مَنْ يُداوي أَجسامها.

إنْ مَرِضتِ الأُمَّةُ مَرَضًا وبِيلا فتَّاكًا، فذلك لا يَقْضِي إلا على حياة عَشَـرَةٍ في الألفِ من مجموعها؛ ثُمَّ يكون الدَّاء دواءً. وإنْ مرضت مَرَضًا اجتماعيًّا قَضَى مَرَضُها على تسـعةٍ وتسـعين في المِئة. وأنتم تَرَوْن، معشَرَ النَّاشئين، أن القضاءَ على حياة الأفراد أَسهلُ من القضاء على حياة المجموع.

وبعدُ، فلا يُمْكِنُ شعبًا من الشعوبِ أن يَنهضَ إلا إذا كان بينَ ظَهْرانَيه[3] من يُـداوي أخلاقَه؛ ويَدفعُه إلـى التَّرقي؛ ويَهِيجُ منه عاطفةَ التَّنَبُّه؛ ويُثِيرُ فيه كامنَ[4] المعالي.

---

(1) اعتراها: أصابها.

(2) ليطبوا: ليداووا. يقال: طبه يطبه إذا داواه.

(3) بين ظهرانيه: في وسطه.

(4) يهيج ويثير: يحرك. كامن: مختبئ.

وبِقَدْر ما لديه من هـؤُلاء المُداوِين يكونُ مقـدارُ تَنَبُّهِه أو خُموله.

الأُممُ لا تَنْهضُ إلا بِتَرقية الأَخلاق الفاضلة، واستئصال[1] كلِ خُلقٍ فاسد من نُفوسـها، وتهذيبِ نظامِ اجتماعها. ومتى تمَّ لها ذلك هانَ عليها كلُّ شـيء بعـدَه: كتَغْيير أنظِمتها[2] السِّياسـيَّة والاقتصادية[3] والعُمْرانيَّة.

ولا يُمكِنُهـا تَنْمِية الأَخلاقِ[4] العالية، وإصـلاحُ ما اختَلَّ من قواعد الاجتماع، إلا بالثَّورة الأدبية، التي يَهِيجُها رُويدًا رُويدًا، حتى تُستأصَلَ شأفاتُ[5] الأَخلاق الفاسدة، فَيَحُلَّ مَحلَّها صالح العادات.

الثَّورةُ الأدبيةُ: قيامُ أفرادٍ من الأُمَّة ـ حسُنَت أخلاقُهم، وَصَفت سَـرائرهم، وزَكَت أَعراقُهم[6] ـ لِيُغَيِّروا فيهـا حالتَها الاجتماعِية والخُلُقِيَّة. فيُهِيبُون[7] بها لِتَنهض؛ ويُثِيرونهـا لِتَترُكَ ما أَلِفَتْهُ من العادات الضَّارَّة والأَخلاقِ المُنحطَّة. ولا يَزالون يَهِيجون ويَتْعَبونَ، ويَسعَونْ ويَنْصَبون[8]، حتى ينالوا ما يُريدون.

---

(1) الاستئصال: قلع الشيء من أصله.
(2) الأنظمة: جمع نظام، ويجمع أيضًا على أناظيم ونظم «بضم النون والظاء».
(3) السياسة: علم تدبير أمور الدولة والرعية. والاقتصاد: علم تنمية الثروة.
(4) تنمية الأخلاق: تربيتها لتنمو نماء حسنًا.
(5) الشأفات: الأصول. والمفرد شأفة.
(6) زكت: طابت. الأعراق: الأصول. والمفرد عرق.
(7) يهيبون بها: يصرخون بها ويزجرونها.
(8) ينصبون: يتعبون.

والشَّرطُ كلُّ الشَّرط، أَن تكون البَدءَةُ[1] بذلك حَسَبِ مُقْتضَى الحال. حتى إذا استَعَدَّت الأُمَّةُ لِمَا هُو أرقى أفرغوا ما لَدَيهم من جَعَباتِ الأفكار الصحيحة، وكِنانات[2] الآراء الصَّائبة. وإلا كانت إثارتُها شَرًّا من بقائها على حالتها القديمة.

وليكــنْ إقدامُهم علــى العمل كإقــدام الطبيب علــى مُداواة المريض: لا يَصِفُ لــهُ الطعامَ، إلا بعدَ أَن يَنــال من الصِّحة مَنالا يُمَكِّنهُ من تَناوله. حَتى إذا بَلَغ أَشُدَّهُ من الصحة جَعَلَهُ حُرًّا في تَناوُل ما لا يَضُرُّ بالأَصِحَّاء. فَليَتَنَبَّهْ إلى ذلك المُرشدون المُصلحون.

الأُمَّة في حاجة شــديدة إلى الثورة الأدبيَّة، لإصلاح حالها، والنُّهوض بها من وَهَدة[3] الانحطاط. وأنتم، معْشَــرَ النَّاشــئين، أُولئكَ الأَطبّاء الاجتماعيُّون. وسيكون بِيَدِكم أمرُ الأُمَّة. وسَتُوكَلُ إليكم إثارةُ أَفكارِها، وبَثُّ[4] الأَخلاقِ الصحيحة فيها.

فَكُونوا، مُنذُ الآنَ، رجالًا حازمين. وَضَعُوا نُصْبَ[5] عُيُونكم أنكم ســتكونون أطبّاءَهــا النَّاصحين، ومُرشــديها المُخْلصين، ووُعَّاظَها العاملين، تَكُون لكم من الشاكرين.

---

(1) البداءة: الابتداء.
(2) الجعبة والكنانة: الوعاء. وأصلهما الوعاء الذي تكون فيه السهام.
(3) الوهدة: الحفرة.
(4) البث: النشر.
(5) نصب أعينكم: أمامها. والنصب: الشيء المنصوب. وهذا الشيء نصب عيني أي قائم في نظري.



الأُمَّة والحكومة

شأنُ الأُمم شأنُ الأفراد: فالفَرْدُ المُعتمِد على غيره، لِيَكفِيَهُ ما يحتاج إليه، هو فَردٌ ساقطٌ سـافلٌ ضعيف؛ فكذلك الأُمَّةُ التي لا تُعْنَى[1] بِشُؤون نَفسها، ولا تَسْعَى في سـبيل الجدِّ لتنالَ قَصَبَ السَّبق، هي أُمةٌ مُنحطَّةٌ سافلة، ليسَتْ من الحُرَيَّة في شيء؛ بل هي مُقَيّدةٌ بسَلاسلِ العُبُوديَّة.

الحكومةُ تُريدُ من الأُمَّةِ أن تكونَ قَيْدَ أوامرها، لا تَحِيدُ عن خُطَّتها، التي تَرسُـمها لها، قَدْرَ شِـبْر. فإن لجَـأت الأُمَّةُ إلى الحكومة، وطلبتِ مَعُونتَهـا في كل أمر من أمُورها، فلا بُدَّ أن تُقيِّدَ نَفْسَـها بِقُيُودها؛ وتَجريَ في حياتها الاجتماعيةِ والعِلميَّة حَسَـبَ رَغائِبهـا. ولا ريـبَ أنَّ الحكومة إنما تُكـوِّن رجالا يَصلُحُون لخدْمتها، لا رجالا يَصلحُون لأن يَقُومُوا بما تحتاجُ إليه الأمَّة. وإن نَبَغَ في مدارسها أو مَصالحها رجالٌ شعبيُّون[2] ـ وذلكَ قليلٌ نادرٌ ـ فَهُم مِمَّن تعلَّموا الحياة الاجتماعيَّة الوطنيَّة

(1) لا تعنى: لا تعتني.

(2) شعبيون: يعملون لحياة الشعب.

من بِيئَتِهم[1]، لا من أساتذتهم، ولا من الكتُبِ التي وُضِعَت لِتَعليمهم.

فإذا أردنا أن نكون أُمَّةً صالحة راقية، فعلينا أن نَسعَى لِترقِية الأُمَّة من طريق الأُمَّة، لا من طريق الحكومة، بما نَبْذُلهُ من الهمَّة في تلك السَّبيل؛ كما هي الحالُ في الأُمم المُتَمَدّنة اليوم؛ فإن هذه الأُممَ تُؤسِّس المدارس، وتُنشيءُ المَعامل والمَصانع[2]، من غير أن تطْلُبَ من حكوماتها أن تمُدَّ إليها يَدَ المَعُونة. ولو فعلَت ذلك لظلَّت مُتأخرة، كما ظللنا.

أيَّة أُمَّةٍ اعتَمدت في إنجاح مَقاصِدها على الحكومة، فهي عالةٌ[3] عليها، مَغْلولةٌ بأَغلالها[4]. ومتى كانتِ الأُمَّةُ مُقيَّدةً مُحتاجة إلى غيرها فَليست بأُمَّة حُرَّة. وإذا كانت غيرَ حُرَّةٍ فَمِن أينَ لها أن تَرقى!؟ وأنّى لها أن تَنْهَضَ!؟

الحكومةُ جزءٌ من الأُمَّة اختصَّ بأعمال خاصَّة. هو يَسْتَمِدُّ دائمًا قُوَّتهُ منها، وعليها يَعتمدُ في كل شأنٍ من الشُّؤون؛ لأنَّ القليلَ يَعتمِدُ على الكثير، وما سَمِعْنا أنَّ كثيرًا اعتمدَ على قليل، إلا إذا كان ضعِيفًا خاملًا جبانًا.

---

(1) من بيئتهم: من محيطهم الذي فيه يعيشون.

(2) المصانع: جمع مصنع وهو دار الصناعة.

(3) العالة: العيال. والمفرد عيل «بتشديد الياء المكسورة» وهو من تجب النفقة عليه من زوجة وولد واتباع.

(4) مغلولة: مقيدة. الأغلال: القيود.

إن أَرادت الأُمَّة أن تكون لها حكومةٌ صالحةٌ راقية، فعليها أن تصلُحَ هِيَ أوَّلا، وتَنْهضَ للأَخذ بأَسباب الترقي والفَلاح. حتَّى إذا ما صَلحَتْ وتَرقَّت مَعَها الحكومــةُ؛ لأَنَّ الجُزءَ تابعٌ لِلكلّ؛ ولأنَّ الحكومة هي صُورةُ الأُمَّة ومِرآتُها. فــإن كانت الأُمَّةُ صالحة فَهي صالحة، والعكــسُ بالعكس. فَلَوْ فَرَضنا صلاحَ الحكومةِ وفســادَ الأُمَّــة، لا تلبثُ الحكومــةُ أن تَفْسُــد. وان كانت الأُمَّــةُ صالحةً والحكومةُ فاسدة، فلا تَمْكُثُ هَذهِ أن تَصْلُحَ وتَتَّبعَ الأُمَّة في سَيرها.

وخُلاصةُ القــول أنَّ الحكومة تابعةٌ للأُمَّــةِ رُقِيًّا وانحطاطًا، وعلماً وجهلاً، وصلاحاً وفساداً. فعلينا أن لا نعتمدَ إلا على أنفسنا ولا نأمُلَ إلا ما نَبذُلُهُ من الجِدِّ والهِمَّةِ. هذا إذا أردنا أن نكون قومًا صالحين، لتكونَ لنا حكومةٌ صالحة.

فإليكم أبسُــطُ يَدَ الرَّجاء، أَيُّها النَّاشِئونَ، أن تَجْعَلُوا هدَفَكُم[1] خدمةَ الأُمَّة خدمةً صادقة، والسَّعي في إنجاحها وتَرقيتها؛ حتَّى يعُودَ إليها مجدُها الدَّاثر[2]، وشَرَفُها الغابر[3]. فَتُكوِّن حكومةً تُناسِبُها رُقِيًّا اجتماعيًّا وعلميًا واقتصاديًا وعُمرانيًا. وبذلك تكونون وطَنِيِّين حقًّا.

حَقَّقَ اللهُ فِيكُمُ الرَّجاء. وحَاطَكم بِعِصْمَته وتوفيقه. إنَّهُ سميعُ الدُّعاء.

* * *

(1) الهدف: الغرض الذي يوضع ليرمى إليه.

(2) الداثر: البالي الممحو.

(3) الغابر: الماضي.



الغُرور[1]

ضعافُ النُّفُوسِ يَرَوْنَ في أَنفُسهم ما لا يَراهُ غيرُهم فيها:

يَرَوْنَ أنَّهم عُظَماءُ؛ وليس لهم من أَسبابها[2] نَقِيرٌ ولا قِطْمير[3].

ويَرَون أنَّهم عُلَمَاءُ؛ والجهلُ قَد خَيَّم على نُفُوسهم، كالضَّباب في يومٍ داجنٍ[4]، أَلَبَسَ الأرضَ وأقطارَ السَّماء أَردية العَماء[5].

ويَرَون أنَّهم أناسِيُّ؛ والمَلَكاتُ[6] الحيوانيَّةُ قد مَلَكَت أَعِنَّة[7] نُفُوسِهم، وأَخذت بأَزِمَّةِ أفئدتِهم[8]، وسَيطرت على طِباعهم، وتَرَكت سِباعَ شَهواتِهم تَفْتَرِسُ عُقولَهم، وتُمَزِّق رِداءَ إنسانيَّتهم.

---

(1) الغرور: أن يرى الإنسان في نفسه من الفضائل ما ليس فيها.

(2) الضمير: في أسبابها يعود إلى العظمة المفهومة من العظماء.

(3) النقير: النقرة في ظهر بزرة الثمر ونحوه. والقطمير: القشرة الرقيقة بين البزرة والثمرة. ليس له نقير ولا قطمير: ليس له شيء.

(4) الضباب: السحاب يغطي الأرض كالدخان. يوم داجن: كثير الغمام.

(5) أقطار السماء: نواحيها وجوانبها. الأردية: جمع رداء. العماء: السحاب الكثيف.

(6) الملكات: جمع ملكة وهي الصفة الراسخة في النفس.

(7) الأعِنة: جمع عنان وهو سيراللجام الذي تمسك به الدابة.

(8) الأزمة. جمع زمام وهي العنان. والأفئدة: القلوب، ومفردها فؤاد.

فَهم في الضَّلال يَهيمــون[1]؛ وفي ظُلُمات الفُسُــوق والعِصيان يَتَسكَّعون[2].

وما ذلك كلُّهُ إلا من غُرُور النَّفس وطَمعِها بالباطل. وهوَ خُلُقٌ سافلٌ، يُودي بما في النَّفوس من ذماء[3] الفضيلة، ويَقضي على ما فيها من أمل السَّعادة، ويَمْحُو ما لأَصحابها من بَقِيَّة الاحترام في نفوس العُقَلاءِ.

ومِمَّا يُؤَثرُ في النَّفْس تأثيرًا غيرَ صالح، أنَّ طائفة من الشُبَّان، الذين هم عِمادُ الأُمَّة، ودِعامةُ حياتها القابلة، ورُكنُ سعادتها في الآتي، قد أصابهم نَصِيــبٌ وافرٌ من هذا الخُلُــق ـ خُلُقِ الغُرُور الغَرور[4] ـ، ومَرَنُوا[5] على هذه العادة، حَتَّى صارت لهم طبيعةً يَصْعُبُ اســتِئصالُها؛ لأنَّها اســتأْصلَتْ[6] في نفوسهم، وتمكَّنت جُذُورها[7] مــن قلوبهم. فنَفَرت منهم ـ بســبب ذلــكَ ـ الأُمَّة، وجفاهم مــن كان منهم قريبًــا، واجتواهم مــن كان لهم صديقًا حَمِيمًا[8].

---

(1) يهيمون: يذهبون لا يدرون أين يتوجهون.

(2) يتسكعون: يتخبطون لا يهتدون لوجهتهم.

(3) يودي به: يهلكه ويذهبه، الذماء: بقية الروح.

(4) الغرور بفتح الغين: ما يغر الإنسان ويدفعه إلى الباطل.

(5) مرنوا: اعتادوا.

(6) استئصالها: نزعها. استأصلت: ثبتت أصولها وتمكنت.

(7) جذورها: أصولها.

(8) اجتواهم: كرههم. الحميم: الصديق كل الصديق.

يَدرُسُ أحدُهم من العلم مسـائلَ قَليلةً لم يُتْقِنْ دَرْسَها، ولم يُحْكِم[1] فَهْمَها؛ فيُريك أنهُ علامةُ الزَّمان وفيلسوفُ الوقت.

ويقرأُ قليلًا من الأدب أو التَّاريخ، فَيَضَعُ نَفْسَه موضع كبار الأُدباء.

ويَنظِمُ كلامًا على وِزان البُحور المعلومة، أو يَكتُبُ سُطورًا يَنْشُـرُها في الجرائد، وليس في نَظْمه شـيءٌ من الشِعر، ولا في كتابته مَغْزًى تَصْبُو[2] إليه النَفْس. وأَكثر ما يُسَمِّيه شِعرًا أو إنشاءً يَفِيضُ خطأً معنويًا أو لفظيًا، أو يكون مَمْلوءًا منهما مَعًا؛ وهو ـ مَعَ هذا ـ يَدَّعي، غيرَ خجِـلٍ، أنه أَكتَبُ كتَّابِ العَصْر، وأشـعرُ شُعَراء الزَّمان، لا يُطاولُه[3] في ذلك مُطاولٌ، ولا يُنازلُهُ مُنازلٌ.

ويَتَصَدَّرُ قومٌ فـي المَجالس العامَّة والنَّـدَواتِ[4] الخاصَّة، فَيَتَكلَّمُـون في كل موضوع، ويَهيمون فـي كل وادٍ. فتارةً تراهمُ مُحَلَقِين في السـماء، وطَوْرًا غائرين في بُطـون الأرض، وآونَةً يَبْحَثُونَ في تاريخ الأُمم، ما مضَى منها وما حَضَر؛ ثُمَّ يَنْتقلون من ذلك إلى عُلوم الأَدبِ وتاريخها، ثمَّ إلى عُلوم الدِّين وتَفاريعها، ثُمَّ إلى الفلسفة بأقسامها، فَيَخبطُون في كل ذلك خَبْطَ عَشْواءَ[5]، في ليلةٍ عمياء، لِيقولَ الناسُ إنهم عُلَماء.

(1) لم يحكم: لم يتقن.

(2) تصبو: تميل.

(3) لا يطاوله: لا يفاخره.

(4) الندوات: جمع ندوة وهي المجلس.

(5) خبط خبط عشـواء: مثل يضرب لمـن يتصرف في الأمور علـى غير بصيرة ـ والعشواء: الناقة لا تبصر ليلًا.

وترى شِرذمةً من الأنانيِّين[1]، قدَمُها في الماء، وأنْفُها في السَّماء، وهي حُثالةُ[2] السُّفَهاء، تَختالُ[3] اختيالَ الجَبابرة، وتَبْطُشُ بَطْشَ القَساوِرة[4]، وتَجلِسُ جِلْسةَ الأَكاسرة[5]، وتَمْشي مِشْيةَ القَياصرة[6]، وهي لا في العِير ولا في النَّفير[7].

وإن سألت أحدَ هؤُلاء الأَنانيِّين عن سَبَب هذه الكِبرياء، أجابك: إنَّ هذا من الإباء[8]. وما الإباءُ، لو يَعَلمُ، إلا تطيهرُ النَفْس من الأَدناس[9]، وتَنزيهُها عن الأرجاس[10]، وحَمْلُها على مَعالي الأمور لِتأبى الضَّيم[11]؛ فلا تُقِيمُ على الخَسْف[12]، ولا تَرضى بالذُّلّ، ولا تَمِيلُ إلى شائن الأَفعال. بل تأخُذ بِزمام صالحِ الأَعمال، وتَسيرُ في مَناهج[13] فاضلِ الأَخلاق.

---

(1) الأناني: الذي لا يرى غير نفسه، فهو يقول: أنا أنا.
(2) الحثالة: سفلة الناس. وأصل معناها: ما يخرج من قشر الشعير ونحوه.
(3) تختال: تمشي مشية الخيلاء والعجب والكبر.
(4) القساورة: الأُسود. والمفرد قسورة.
(5) الأكاسرة: جمع كسرى، وهو لقب لكل من ملك الفرس.
(6) القياصرة جمع قيصر. وهو لقب لكل من ملك الروم.
(7) العير: القافلة من الدواب تحمل الميرة. والنفير: القيام العام لقتال العدو. وقولهم: «هو لا في العير ولا في النفير» مثل يضرب لمن يحط أمره ويصغر قدره ولا يصلح لهم.
(8) الإباء: الامتناع مما يشين.
(9) الأدناس: الأوساخ. والمفرد دنس، بفتح الدال والنون.
(10) الأرجاس: الأنجاس، والمفرد رجس، بكسر الراء وسكون الجيم.
(11) الضيم: القهر والظلم والذل.
(12) الخسف: تحمل ما يكره، والنقيصة، والذل.
(13) المناهج: جمع منهج وهو الطريق الواضح.

إنَّ عَمَل تلك الشِّرذِمةِ لَهُوَ من صِغَرِ النُّفوسِ، ولُؤْم الطِّباع، وخِفَّةِ الأَحلام[1] ودَناءةِ التربية، والتَّمَسُّكِ بالأَوهامِ.

فأُعِيذُك، أيُّها النَّشءُ الصَّالحُ، من الغُرُور؛ فإنَّه يَسوقُ إلى هذه الأُمور، ويُزَيِّنُ لك تلكَ الأَعمــال الدَّنيئة، ويَحْمِلُك على مَركب الهوان.

اعرِفْ حَدَّك، واسعَ لِمَا هو فَوقَه، بِمَا تَبْذُلُهُ من الجِدّ والعمل واكتساب الفضائل. فَرَحِمَ اللهُ امرءًا عَرَفَ حَدّهُ فوَقَفَ عِندَه.

أَخَذَ اللهُ بِيَــدِك، وأزاح عن قلبك الغِشــاوة[2]، وهَداك أقومَ طريق.

* * *

---

(1) الأحلام: العقول ومفردها حلم.

(2) الغشاوة: الغطاء.



التَّجدد

التَّجَدُّدُ هو الحياة. وهو سُنَّةٌ[1] عامةٌ في كلّ حيّ.

الأَجسامُ الحيَّةُ تَتَجَدَّدُ في كل مُدَّةٍ معلومة. فَتَفْنى ذرَّاتُها، التي لم تَبْقَ صالحةً للبقاء؛ ويَنشأ غيرُها مِمَّا هو قابل للحياة. ولولا هذا التَّجدُّدُ لَمَا أمكنَها أن تَحيا أَكثر من عَشْر سِنين. ثُم تُكْتَبُ بعدَها في سِفْرِ[2] الفَناء.

إنَّ الموت هو طارئٌ على الأَجسام يَمْنَعُ تَجَدُّدَها. فهو قد يكون ضعيفًا؛ فيعملُ على مَنْع التَّجدُّدِ تَدريجًا. حَتَّى إذا استَحكمت جَراثيمُهُ[3] بَلَغَت ما تُريد. وقد يكون قويًا، فيكونُ منه الموتُ الفُجائيُّ، الذي يَقْضِي على نَسَمات[4] التَّجَدُّدِ قَضاءً سريعًا.

وهذا هو الشأنُ في النّبات أيضًا؛ فإنَّهُ من الأَجسام ذَواتِ الحياة.

---

(1) السُّنَّة. الطبيعة.

(2) السِفْر: الكتاب. والجمع أسفار.

(3) استحكمت: تمكنت. الجراثيم: الأصول. وتطلق اليوم على ما يسمى المكروب.

(4) النسمات: الأنفاس، جمع نسمة وهي نفس الروح.

فالبُســتانُ الذي يَتَعَهَّدُهُ مِحْراثُ الحــارثُ[1]، وتَعمَلُ فيه يَدُ الباحث؛ فَتُقلِبُ أرضَهُ، وتَسْــقِي أَغراسَهُ، وتُشَــذِّبُ[2] أغصانَهُ، وتُنَقِّي تَربَتَهُ من الحشَرات الضَارة والنَّباتات الفاسدة، تَسْري فيه رُوحُ التَّجَدُّد؛ فيُؤتِي أُكُلَهُ مَوفُــورًا[3]، ويُفيضُ على أصحابه من الثَّمَرات أَشهاها، ومن الفاكِهة أطيبَها.

والبُستانُ الذي يُهْمِلهُ البُستانيُّ ـ فلا يَفْلَحُهُ، ولا يَسقيهِ، ولا يَتعَهَّدُهُ بالحِيطة[4]، ولا يَنْفِي عنه ما يَضُرُّ به من حَشَرات ونَبات، ولا يَمُدُّ إليــه مِنْجَلَ التَّطْهيــر ـ تمْرَضُ تُربتُهُ، فــلا تَقْوَى على الإنبات، وتضعُفُ أشجارُهُ، فلا تستطيعُ الثبات، وتذبُلُ أغصانُه، فلا تجُودُ بالثَّمرات.

وما ذلك إلا لفَقْدِ أسباب التَّجَدُّدِ. والتَّجَدُّدُ سِرُّ البقاء.

الأُمَّةُ هي الأَشجارُ في بُستانِ الحياة، ومُرشدُوها هُمُ الحُرَّاث.

فإن أَهملوا شــأنَ تربيتها ـ فتَرَكوا أَمرَ تعليمهــا، ولم يُرقُّوا عقولَها، ولم يهَذبوا أخلاقها، ولم يَنْفُــوا عنها ما يطْرأُ عليها من فاســد العادات وضارِّ الأخلاق، ولم يَتعهَّدُوهــا بما يَحدُثُ من

---

(1) يتعهده: يتفقده. المحراث: السكة التي تحرث بها الأرض أي تشق بها. الحارث: الزارع. والجمع حراث.

(2) تشــذب أغصانه: تصلحها بقطع شــذبها وهو ما تفرق من عيدانها مما لم يكن صالحًا.

(3) موفورًا: تامًا.

(4) الحيطة: الحفظ والتفقد.

جديد المَحارث، وحدِيث الوســائل المُحيِيَة، ولم يُهِيبُوا[1] بها لتَنهَضَ وتحيا حياةً سَــعيدَةً ـ كانت عاقبتُها الخُمولَ، فالذُّبُولَ، فاليُبْسَ، فالاستِئصال[2] من بُستان الحياة.

التَجَدُّدُ يكونُ في المَعقُوات، كما يكونُ في المَحْسُوسات.

فإذا كانت الأَجسام الحيَّة إلى التَّجَدُّدِ ـ لتُحافِظَ على حياتِها ـ فكذلك مَعْنَويَّاتُ الأُمَّة، يَجِبُ أن تَتَجَدَّدِ بِتَجَدُّد حاجاتِها.

وإن كان البُستانُ ـ وإن بالغَ البُستانيُّ بِتَعَهُّدِهِ وتَجْويدِه ـ لا بُدَّ أن يَظْهَر بينَ نَباته الطَّيّب نباتٌ فاســدٌ وحَشَراتٌ ضارَّةٌ، فكذلك الأَخلاقُ والعــادات، لا تَلبَثُ أن يَنْــدَسّ[3] فيها من الأَوضار ما يُشَوِّه[4] مَحاسَنها، ويُفْسِد صالحها.

فالبُستانيُّ لا يَجُوزُ لهُ أن يُهْمِل ذلك النَّباتَ الفاسد، ولا تلك الحشَرة الخبيثة، كيلا تُفْسِدَ النَّبات كلَّه.

والأُمَّةُ يَجِبُ أن تَتَنَبَّه لكل خُلُقٍ خَلِيقٍ[5] بالرَّفضِ، وكلِّ عادةٍ جديرةٍ بالطَّرْح؛ فَتَعملَ علــى مَحْوهما؛ حتى لا يَتَعَدَّى ضَررهُما إلى فاضل الأَخلاق وحَسَن العادات.

---

(1) أهاب به بهيبٍ: صرخ به وزجره.

(2) الاستئصال: القلع والنزع.

(3) يندسّ: يدخل ويندفن.

(4) الأوضار: الأوساخ. والمراد بها الأخلاق الفاســدة. والمفرد وضر «بفتح الواو والضاد». يشوه: يقبح.

(5) خليق: جدير.

التَّجدُّدُ سُــنَّةٌ طبيعيَّةٌ إلهيَّةٌ، لذلك كان اللهُ سُــبحانَهُ يُرْسِــلُ الرُّسُلَ، الواحدَ إثرَ الواحد، حتى يُجَدِّدَ اللاحِقُ مَعالِمَ[1] ما جاءَ به السَّابق؛ مَعَ زيادات تَقْتَضيها الحالُ، وتَدْعُوا إليها الحاجة. وإلى ذلك الإشارةُ في الحديثِ: «يَبْعثُ الله على رأس كلِّ مِئةِ عامٍ، من يُجَدِّدُ لهذه الأُمَّةِ أمرَ دِينها».

متى سَــرَتْ رُوحُ التجدُّد في الأمَّة، تَثُورُ[2] على ما فَسَدَ من أخلاقها، وتَهيجُ على ما اختَلَّ من أنظِمتهــا[3]، وتَقْضِي على ما شــاخَ[4] من عاداتها؛ حتى تُرْجِع ذلك كُلَّهُ يَتَهادى في مَطارِفِ[5] الشّباب، ويَخْطِرُ في حُلَل الكمال.

إنَّ الأُمَّةَ، أيُّها النَّــشءُ الصَّالح، في الحاجــة القُصْوى إلى التَّجَدُّد. فَقَدِ اشَــتَعلت رؤُس عاداتِها وأخلاقِها وأنظمتِها ولُغتِها وسائرِ مُقَوِّماتِها شيْبًا.

فانْهَضْ، رَعاكَ اللهُ وحاطَكَ بِمَعُونَته، بأُمَّتِك، بِما تَبُثُّهُ فيها من رُوح التَّجَدُّد؛ فإنَّ التجدُّدَ سِرُّ الحياة.

* * *

---

(1) المعالم: الآثار. والمفرد معلم.

(2) تثور: تهيج وتتحرك.

(3) الأنظمة: القوانين التي توضع لتسير الأُمَّة في سـبيلها، والمفرد نظام. والنظام: قوام الأمر الذي به يقوم. وأصله الخيط الذي ينظم فيه اللؤلؤ.

(4) شاخ: هَرِم وبلي.

(5) يتهادى: يتبختر. المطارف: ثياب من الحرير مربعة لها أعلام. والمفرد مطرف.



التّرف[1]

ما وجدَ التَّرَفُ سبيلاً إلى نُفُوس أُمةٍ إلا أفسدها، وجعلَ عاليَ سعادتِها سـافلَها، وبَدَّدَ[2] ما لدّيها من ثروة، وأسقط ما لها من رفعة، ودَمَّرَ[3] ما عندَها من عُمران.

المُترَفُون[4] في كل أمةٍ تَفْسُدُ أَخلاقُهم، بما يَكثُر لَديَهم من دواعي التَّنعُّم، وما يُحِيطُ بهم من أسباب الفُسُوق[5] عن سُنَنِ الله.

التَّرفُ يَسُوقُ إلى السَّرَف. والسَّرفُ داعيةُ التَّلف. فالمُتَرفُونَ ضُعفَاءُ العُقول، ضُعَفاء الجُسوم، ضُعَفاء الإرادة؛ خامِلو الأذهان؛ لا يَعرفون للحياة معنى سوى ما تسوقُهم إليه الشَّهواتُ الحيوانيَّةُ؛ وتَدفَعُهم إليه اللذَّات البَهِيميَّة. فلا يَسْـعَون لِمَا يُفيدُ الأُمَّة، ولا يُفَكِّرون فيما يَعْمُرُ البـلاد. فالمعروفُ عندَهم منكور. والمنكور مشـهور. والخيرُ مقبور. والشَّرُّ منشـور. فإن دَعَوتَهُم لِتَخفيف

---

(1) الترف: التوسع في التنعّم. يقال: أترفته النعمة، أي أطغته وأبطرته.

(2) بدد: أذهب وفرق.

(3) دمر: قوض وهدم.

(4) المترفون: المتنعمون.

(5) الفسوق: الخروج والعدول عن الأمر، والعمل المنكر.

مُصابِ الأَشــقياء[1]، وتَجفيفِ دمعةِ الفُقراء، وبَذْلِ المالِ لتعليم الجُهلاء، غَصَّت حُلوقهم، وشَــرِقُوا بريقهــم، وأَمالُوا أعناقَهم، ولوَّوْا رؤوسَــهم[2]. وإن طُلِبوا لِبَذْلِ الأَموال في سافل الأفعال، هَرَعوا مُلَمِّين، وأقدمُوا مُسرعين، وأجابُوا الدَّاعين، كأنَّهُمُ السَّهْمُ المُرسَل، أو القَضاءُ المُنْزَل.

ما من فسادٍ يَنتشر في الأُمَّة، إلا كان هؤلاء المُترفُونَ مَنْشأه. وما من بَلِيَّة تَحُلُّ بها، إلا كانوا جَراثيمَ أوبائِها[3]. وما من فُسُوقٍ إلا كانوا عِمادَهُ وذِرْوَةَ سَنامِهِ[4].

إنَّ النُّفُوسَ لَتضْرَى بالشَّهواتِ[5] حَتى تَسْتَحْوذَ عليها[6]؛ فلا تَترُكَ فيها مَنْفَذًا إلا ولَجَتْهُ[7]، ولا مُتَّسَــعًا إلا مَلأتهُ. وما ذلك إلا من التَّرفِ؛ فإنَّه يَدعُو إلى التبَسُّــطِ[8] في الملذَّات، وإعطاءِ النَّفسِ الأَمَّارةِ هَواها، وإجابةِ مُيُولِها. ومَتَى لَهَتِ الأمَّة بأَهوائِها[9]، واشَتغَلَت بِشَهواتها، وعَبِثَت[10] بِمَرافقها، وغَفَلَت

---

(1) الأشقياء: جمع شقي وهو البائس المحتاج.
(2) لووا رؤوسهم: أمالوها وأداروها.
(3) الأوباء: الأمراض والمفرد وبأ. وأما الوباء فجمعه أوبئة.
(4) ذروة كل شيء: أعلاه. السنام في الأصل: ما ارتفع من ظهر الجمل.
(5) تضرى بالشهوات: تولع بها حتى تعتادها.
(6) تستحوذ عليها: تستولي عليها.
(7) ولجته: دخلته.
(8) التبسط: الاجتراء وترك الاحتشام.
(9) الأهواء: جمع هوى النفس.
(10) عبثت: هزأت واستخفّت ولعبت. المرافق: المنافع والمصالح.

عن مُقَوِّماتِ حياتها، أسرع إليها الفساد، وعمَّها البلاء؛ وحاطَتُها الأَرزاء[1].

عُجْ بِطَرفْكَ[2] نَحْوَ الأُمم الخالية، تِجِدْ أنَّ التَّرفَ قد قَضَى عليها، حتى جَعَلَها عِبرَةً لِمَن يأتي بعدَها.

هذهِ الأُمَّةُ الرُّومانِيَّة، والأُمَّةُ الفارِسيَّة، والأُمَّةُ العرَبيَّة؛ فإنَّها، بعدَ أن كانت في ذُرَى المجدِ والسَّعادة، قد هَوَى بها التَّرفُ إلى مكانٍ سَحيقٍ[3]، ونَزَل بها التبَسُّطُ في هَوَى النفسِ إلى الحَضيض[4]. ورُبَّما كان هذا السَّبَبُ مَمْزُوجًا بغيره من الأَسباب التي تَدعو إلى الانحلال؛ ولكنَّهُ السَّبَبُ الأوَّلُ الذي يَجُرُّ وراءَهُ غيرَهُ منَ الأسباب.

وقِسْ على هذه الأممِ غيرَها من الأُمم الماضية؛ وابحَثْ تَجِد أنَّ هذهِ العِلَّةَ هي جُرثومةُ الجراثيمِ وعِلَّةُ العِلَل.

قارِنِ اليومَ بين أخلاقِ أهلِ البادِية، وأخلاقِ سُكَّانِ الحواضر؛ وقايس بينَ جُسومِ هؤلاءِ وجُسُومِ أُولئك؛ ثمَّ انظُرْ إلى ما عندَ البادِينَ[5] من شَرَف النَّفسِ والوفاء والعِفَّةِ والكَرَم والشَّجاعَةِ وغيرها من الأَخلاق الفاضلة، وإلى ما عند هؤلاء المُتَمَدِّنِين من

(1) الأرزاء: المصائب. والمفرد رزء.

(2) عج بطرفك: أعطفه وأدره.

(3) سحيق: بعيد.

(4) الحضيض: الأرض، وأسفل الجبل.

(5) البادي: من يسكن البادية.

أضْدادها؛ واحكُمْ بعدَ ذلك على ما يَجُرُّهُ التَّرَفُ على الإنسان من الأَمراض في الأَخلاق والأَجسام.

نحن لا ندعو إلى البَداوة. ولكنْ نَدعو إلى التخلُّق بأخلاق أَهلها؛ ونُهيبُ[1] بِمَن يُسَمِّي نَفْسَهُ إنسانًا أنْ يُقْلِعَ عن سافل العادات، ويَتَجنَّبَ سَفِيهَ الأخلاق، ويبتعدَ عن التَّرف؛ فهوَ يَجْرُفُ الفضائلَ، ويُبقِي على الرذائل؛ وأنْ يكونَ بين ذلكَ وسَطًا؛ كيلا يَكون أمرُهُ فُرُطًا[2].

فَتَنبَّهُوا، أيُّها الناشئونَ، إلى ما يُحِيطُ بِكُم من سِباعِ المَلَذَّات، وما يَحُوطُكُم من ضَوارِي[3] الشَّهَوات. ولا تَتَخَلَّقُوا بأخلاقِ المُتْرَفين. ولا تَسِيروا سَيْرَ العادِين[4]؛ كيلا تُكْتَبُوا في الذَّاهبين. وفي هذا بصائرُ[5] لكم إن كُنتم مُبْصِرِينَ.

* * *

(1) نهيب: ننادي ونصرخ.

(2) أمره فرط: مجاوز الحد.

(3) الضواري: الحيوانات المفترسة كالذئب والأسد ونحوهما.

(4) العادي: المجاوز الحد في أعماله.

(5) البصائر: العِبر والشواهد. والمفرد بصيرة.



الدِّين

حقَّ العَـلاء[1] لأنفُـسٍ طَهُرَتْ ... عنها تَناءَى الفُحْـشُ والفَنَدُ[2]

لبِسَـتْ دِثارَ العلمِ، وادَّرعَتْ[3] ... بالدِّيـنِ، فهـوَ لمجدِهـا عَمَدُ

فالدِّيـنُ، لـولاه لَمَـا انقطعتْ ... عن عقـلِ هـذا العالَـمِ العُقَدُ

ولَمَـا اسـتقامَ لأمرِهـمْ عِوجٌ ... ولَمَـا أُقيـمَ لِمَيْلهـم أوَدُ[4]

ولأنجَـدُوا يَعْلُوهـمُ غَطَـشٌ ... ولأَتْهَمُـوا يَجْفُوهُمُ الرَشَـدُ[5].

الدِّينُ الصحيـحُ نِبْـراس[6] المَدَنِيَّة. والعملُ بـه رائدُ[7] الإنسانيَّة.

---

(1) حق: ثبت. العلاء: الشرف والرفعة.

(2) الفحش: المنطق الفاسد القبيح. الفند: الكذب، والظلم، وكفر النعمة.

(3) الدثار: الثوب. أدَّرعتْ بالدين: اتخذته درعاً لها.

(4) الأود: الإعوجاج.

(5) أنجدوا: أتوا نجدًا. الغطش: الظلام. أتهموا: جاءوا تهامة. ونجد وتهامة من بلاد العرب. فنجد أراضيها مرتفعة، وتهامة أراضيها منخفضـة. ـ والمراد بالأنجاد والإتهام هنا: السير على اختلاف أنواعه.

(6) النبراس. المصباح يستضاء به.

(7) رائد. مرشد.

الدِّينُ وَضعٌ إلٰهيٌّ. وحاش لله أن يأمُرَ عبادَهُ بما يُقعِدُهم عن العمل الصالح، ويَصْدِفُهم[1] عن العِيشة الرَّاضية.

فالمَدَنيَّة الصحيحــةُ هي الدِّينُ الصَّحيحُ. فــإن لم يكن كُلٌّ منهما عينَ الآخر، فهُما شَقيقان؛ أبُوهُما الحقُّ، وأُمهُّما الحقيقة.

ما أسعدَ النَّاسَ إلا الدِّينُ؛ وما أشقاهُم إلا تَركُهُ، أو التَّمَسُّك بِقُشُوره وإهمال لُبابه.

الدِّينُ سيفٌ ذُو حَدَّين. فإن أحسنَ المُنْتَسِبُ إليه استعمالَه كان له عَونًا في الشدائد، ومرشدًا في الفَلَوات[2] ومِصباحًا في الظُّلُمات. وإن أســاءَ انتِضاءَهُ[3] ضَرَّ به وبغيره. وإنَّ ما نَراهُ من شقاء كثيرٍ من المُتَدَينين، إنْ هوَ ناشئٌ إلا من جهلهم بالدّين، وبُعدِهم عن جَوهره النَّقي، الخالي عن الشَّــوائب[4]، المُنَزَّه عَمَّا دَسَّهُ[5] فيه الدَّسَّاسون؛ وعن أعمال من لا يَعرفونَ منه إلا الاســمَ وبعضَ الأَعمالِ الظاهرة؛ وعن أغراض الذين اتخذوهُ مَلعَبًا لأَهوائهم، ومَركَبًا لسافل مَقاصدهم.

الدِّينُ اليوم شَــبَحٌ لا رُوحَ لهُ، وألفاظٌ أضاعَ النَّاسُ مَعناها. وقد اتَّخذهُ المُتلبِّسُون به حِبالةً[6] لاصطياد عُقُولِ العامَّة، ووسيلةً

(1) يصدفهم: يصرفهم ويمنعهم.
(2) الفلوات: جمع فلاة، وهي القفر والصحراء الواسعة.
(3) انتضاء السيف: تجريده من قرابه.
(4) الشوائب: العيوب، والإدناس، والإخلاط.
(5) دسّه: أدخله.
(6) الحبالة: شبكة الصياد.

لِتَعْظيمِها إياهـم وإتراعِ حَقائبهم[1] من أموالها. وهُم ليسُـوا من الدين في شيء. بل هُناك جَهلٌ مُطبق، وأخلاقٌ وَضِيعة، ونفوسٌ ضعيفة، ونُفورٌ من صالح الأعمـال، وبُعدٌ عن هَدَفِ[2] الحقيقة. وأكثرُهم عَبدَةُ أوهام، وسدَنَةُ[3] تقاليد، وأُجَراءُ أهواء.

إنَّ العامَّـة غيرُ ملُومةٍ إن اعتقدت مـا لا أصلَ له في الدِّين. وإنَّما المَلُومُ أُولئك الذينَ يُسـمُّون أنفُسَهم خاصَّةً؛ وهم يَدُسُّون في نُفُوس العامَّة مـا لا يَتفِقُ مَعَ الشَـرع؛ ويَنْشُـرُون فيهم من الإفْك[4] ما يُسَمِّمُون به العُقول، ويُوسِّعُ مسافةَ الخُلفِ بينَ أبناء الوطن الواحد.

ضَررُ الدِّينَ من رَجُلَين: رَجُلٍ.

ظَنَّ دِيـنَ الله في تـركِ الدُّنا[5] ... ورَأَى إعـراضَ عنهـا أنفعـا
وَهُـو لو جاءتـهُ منها بَـدْرةٌ[6] ... طَلَّقَ التَّقوى وعـافَ الوَرَعا[7]
فَهُـو لا زُهدًا بها عنهـا نأى[8] ... لكـنِ الجِـدُّ يُذِيـبُ الأَضلُعا

(1) الإتراع: الإملاء. الحقائب: جمع حقيبة وهي خريطة يعلقها المسافر في الرحل للزاد ونحوه.
(2) الهدف: الغرض الذي يوضع ليُرمى إليه.
(3) السندة: جميع سادن وهو خادم للصنم.
(4) الإفك: أشد الكذب.
(5) الدنا: جمع الدنيا. وإنما جُمعت مع أنها واحدة لاعتبار أقسامها ومظاهرها.
(6) البِدرة: عشرة آلاف درهم، والجمع بدر «بكسر الباء وفتح الدال».
(7) الورع: الابتعاد عن الشبهات خشية الوقوع في المحرمات.
(8) الزهد: الإعراض عن الشيء احتقارًا. نأى: بعد.

خاف أن يَسْعَى فيُدمِي رِجْلَهُ فرأى الرَّاحَة فيما صَنعا
ليس بالزَّاهد في الدُّنيا امرُؤٌ يَلْبَسُ الصُّوفَ ويَهْوَى الرُّقَعا[1]
إنَّما الزَّاهدُ في الدُّنيا امرُؤٌ عَفَّ نَفْسًا، فأبى أن يَخْنَعا[2]

ورَجُلٍ يَدعُو إلى باطلٍ باسمهِ؛ ويُكَفِّرُ سِواهُ أو يُبَدِّعُهُ أو يُفَسِّقُهُ[3]، لتَظُنَّ العامَّةُ أنَّهُ مُتَدِيِّن، وهو بعيدٌ عن الدِّين بُعدَ السَّماء عن الأرض.

فاحذَرْ، أيُّها النَّشءُ الصَّالحُ، هذَينِ الرَّجلَين؛ فَهُما آفةُ[4] الدِّين.

الدِّين نُورٌ، وعَمَلُ هذَينِ ظُلمةٌ. الدِّينُ حقٌّ. وعَمَلُهُما باطلٌ. الدِّينُ عُمْرانٌ. وما يَدْعُوَان إليه خَراب.

لا تَظُنَّ الدِّين ما يُمْلي الهَوَى ليسَ دِينُ اللهِ تلكَ البِدَعا[5]
إنَّما الديِّنُ ضِياءٌ لمَعا فاستنارَ الكونُ لمَّا سَطَعا
قَبَسَتْ منه المَعالي شُعْلَةً صَدَعَت قَلبَ الدُّجا[6] فانصَدعا

تَمَسَّكُوا، معشَرَ النَّاشئينَ، بدينكم. ولا تَدَعُوا للمُنْتسبين إليه، وهو بَراءٌ منهم، سَبيلًا؛ تَفُوزُوا بالسَّعادَتين؛ وتَنالوا الحُسْنَيَيْن[7].

(1) الرقع: جمع رقعة، وهي ما يرقع به الثوب.
(2) يخنع: يذل ويهون ويحطّ من نفسه ومروءته.
(3) يبدعه ويفسقه: ينسبه إلى البدعة والفسق.
(4) آفة الشيء: عاهته وضرره وفساده.
(5) البِدع: جمع بدعة وهي ما يُنسب إلى الدين وليس منه.
(6) صدعت: شقت. الدجا: الظلام.
(7) إن ما ورد من الشعر في هذه العِظة هو لصاحب العِظات.



المَدنيَّة

المَدَنِيَّةُ الحقُّ سِيرةٌ تَكْسِبُ المُتَمَدِّن صِحَّةً في جِسمه وعقله، وتُلبِسُهُ حُلَّةَ تَزينُهُ في أَهله وعَشيرته وبِيئته[1]، وتجعلُه سعيدًا في دُنياه وآخرتِه.

فمن تَرَدَّى بردائها، وسَعَى لها سَعْيَها، كان مُتَمَدِّنًا. ومن فَهِمَها على غير وجهها ـ فلَبس لها رداءً غيرَ رِدائِها ـ كان مِمَّن طُمِسَ على قُلوبهم؛ وضُرِبَ بَيْنَهم وبينَ السَّعادة بأسوارٍ لا تَقْوَى على اختراقِها مَدافِعُ الآمال، بَلْ تَعْيا[2] عن بُلوغ أَعلاها نُسُورُ الأَمانيّ؛ ويَكِلُّ دُونَ ذُراها طَرْفُ[3] الرَّجاء.

ما المدنيَّةُ إلا أخلاقٌ فاضلة، تُثمِرُ ائتِلافَ الأفراد، واتحادَ الجماعات؛ وسَعيٌ وعَمَلٌ، يَلدانِ عُمْرانَ البلاد، وارتقاءَ الحالةِ الاجتماعيَّة؛ وإقدامٌ على تَطهيرِ النَّفسِ من الرَّذائل، لاكتسابِ الفضائل؛ وإحجامٌ[4] عَنِ الضَّررَ بالناس؛ وابتعادٌ

(1) البيئة: المنزل. والبلد أو القطر الذي تعيش فيه.

(2) تعيا: تشعب وتعجز.

(3) الذرا: جمع ذروة وهي أعلى كل شيء. الطرف: العين.

(4) الإحجام: التأخر والامتناع والكف.

عن مَناكِرِ الأخلاق؛ وبَذلٌ لتَخفيف وَيْلاتِ البائس[1]، وتَشييدِ صُرُوحِ[2] المدارس.

كانت الأُممُ المَشْرِقيَّةُ؛ وكان لها في المدنيّة صَوْلة[3]، وفي تَثْبيت أركانها دَوْلة. ثمَّ دارت عليها الدَّائرة. فَطَرأ عليها ما طَرأ، مِمَّا خَرَّب عُمرانَها، وبَدَّدَ[4] تمدُّنَها. سُنَّة اللهِ فِيمن لم يعمل بقانون الاجتماع، ولم يَظَلَّ سائرًا في سبيل الحضارة[5] الصحيحة. فانتقلَت عُلُومها ومَدَنِيَّتُها إلى قوم عَرفَوا فضلَها؛ فأَحلُّوها المَقامَ الأرفع. ووسَّعُوا لها صُدُورَهم. وزادوا فيها ما اقتَضَتْهُ سُنَّة التَّرقي؛ ودَعَت إليه الحاجة. فبلغوا من الكمال في الحضارة مَبلغًا جسيمًا. وساروا أشواطًا[6] عظيمةً. فملكوا نَواصِيَ[7] الأُمَمِ الخاملة؛ وأَحكَمُوا الشَّكَائِمَ[8] في أفواهِها.

غيرَ أنَّ مدّنِيَّتَهم لم تَخْلُ من شَوائبَ[9] تُخالِطُ كلَّ قومٍ استَبْحَرَ[10] عُمرانُهم؛ ونَمتْ حَضارتُهم. على أنَّهم لَيْسُوا راضين

---

(1) البائس: الشديد الحاجة.

(2) شيّد البناء تشييدًا: رفعه. الصروح: القصور. والمفرد صرح.

(3) الصولة: السطوة.

(4) بدد: فرّق وأذهب.

(5) الحضارة: المدنية، وهي خلاف البداوة.

(6) الأشواط: جمع شوط، وهو الجري مرة إلى الغاية. وهو أيضًا الغاية نفسها يجري نحوها.

(7) النواصي: جمع ناصية وهي مقدم الرأس.

(8) الشكائم: جمع شكيمة وهي حديدة اللجام المعترضة في فم الفرس.

(9) الشوائب: الإخلاط، والعيوب والأدناس.

(10) استبحر: انبسط واتسع.

عَمَّا دَهَمهُم[1] من الأَشـــواك. بل تراهم ســاعين نحوَ تَشذيبِ[2] شَوائِبهم، وتهذيبِ مَدَنِيَّتِهم.

وقد أَفاقَ الشَرقُ اليوم من غَفْلته؛ وتَنَبَّه من سِنَته[3]. وطَفِق يُقَلِّدُ مدنيَّة الغَرْب؛ كما قَلَّدَ الغربُ مدنيَّتَهُ من قبلُ. غيرَ أنَّ السَّير ضعيفٌ، والسعي بَطِيء. وأكثرُ المُقلِّدينَ لم يَتمسَّك إلا بقُشُور التَّمدُّن، تاركًا لُبابَهُ. فما يَدْرُسونَهُ إنَّما هو نَظَريَّات لا تُسْمِن ولا تُغْنِي من جُوع. والعلمُ إنَّما هو العَمل. وهؤُلاء لا يَعْمَلُون بما يَعْلَمُون. وفائدة العُلُومِ الكَوْنيَّةِ (أو العَصْرِيَّة) هُو الوصولُ إلى ما وصل إليه الغَربِيُّون، من إنشـــاء المَعاملِ ودُورِ الصِناعات، التي تُدِرُّ على البلاد غِنًى وثَرْوةً، وتَجتاحُ[4] منها الفَقْرَ، وتَقضِي على البُؤس[5].

وهُناك قومُ مِمَّن يَدَّعــون تَقليدَ بني الغرب، لم يُقلِدُوهُم في علم مفيد ولا عَملٍ نافع. وإنَّما قَلَّدوُا فُسَّاقَهم وفاسدي الأخلاق منهم. فلا يعرفون من المدنيَّة إلا اتِباعَ الهَوَى، والعملَ بالمَناكر، والتَّفَنُّنَ في الأزياء[6]، والتَّمسُّكَ بسافل العادات، وتَبذيرَ الأَموال في سَفِيه الأَفعال.

---

(1) دهمهم: جاءهم على حين غفلة.

(2) التشذيب: الإصلاح والتهذيب.

(3) السِنَة: الغفلة، والنوم.

(4) تجتاح: تستأصل وتمحو.

(5) البؤس: الشدّة والشقاء.

(6) الأزياء: جمع زي، بكسر الزاي، وهو الهيئة، والمراد به هيئة الملابس ونحوها.

فاحذرَ، أيَها النَّاشـــيءُ، أنْ تَفْهمَ المدنِيَّة فَهْمًا لا يَنْطَبقُ على حقيقتها؛ فَتَخْسَـــرَ دُنْيـــاك وآخرَتَـــك؛ وتَجتذِبَ إلى جســـمك الأمراض، وإلى عقلك الفساد.

واعلم أنَّ المدَنيَّة الصَّحيحة هي ما شَـــرَحتُ لك. فَتمسَّـــكْ بِعُراها[1]، واعمل بِمُقتضاها؛ تَنَلْ نَفْسُـــك العاقلـــة مُناها، وتَفُزْ بِمُشتهاها.

* * *

(1) العرى: جمع عروة هي ما يوثق به ويعول عليه، وهي في الأصل: مقبض الدلو والكوز ونحوهما؛ وما يدخل فيه الزر من القميص ونحوه.



الوطنيَّة

ما عَجِبتُ لأَحدٍ قَطُّ عَجَبي مِمَّـن يَدَّعي الوطنيَّة، ويَزعُمُ أنَّه يَفْدي الوطنَ بِدمهِ وماله؛ ثمَّ تَراهُ شديدًا في تخريب صَياصِيه[1]، بما يأتيه من ضُروب النِّكاية فيه[2].

ليس كلُّ من يُنادي بالوطنيَّة وطنيًا، حَتَّى تُراهُ عاملًا للوطن بما يُحْييه، باذلًا ما عَزَّ وهانَ في سبيل ترقيه؛ يسعَى معَ الساعين في إعلاء شأنه، ويَنصَبُ[3] معَ النَّاصبين في حفظِ كيانه.

أمَّا من يسعى فيما يَفُتُّ في عَضُده، ويَكسِرُ في ساعده[4]، فَقَد بَعُدَ ما بينَـهُ وبين الوطنيَّة، ولـو رَفَع عَقِيرَتَـهُ[5]، وملأ الأَقطارَ صُراخًا، ونادَى في الأُمَّة: أنْ إني من الوطنيين المُخلِصين.

---

(1) الصياصي: الحصون، وكل ما امتنع به. والمفرد صيصة وصيصية.

(2) النكاية: القهر. يقال نكاه ونكى فيه، أي قهره وظلمه.

(3) ينصب: يتعب.

(4) العضد: هو مـن المرفق إلى الكتف. وفت العضد وكسـر السـاعدة كناية عن إضعاف القوة وتفريق الأعوان.

(5) العقيرة: الصوت.

الوطنيّةُ الحــقُّ هي حبُّ إصــلاحِ الوطن، والسَّــعيُ في خِدمته. والوَطنيُّ كلُّ الوطني من يموت لِيَحيا وطنُه، ويَمرَضُ لِتَصِحَّ أُمَّتُه.

ألا إن للوطن على أبنائه حُقُوقًا؛ فَكمــا لا يكونُ الابنُ إبنًا حقيقيًا حتى يقومَ بواجب الأُبُــوَّة، فكذلك ابنُ الوطن، لا يكون إبنًا بارًّا حتى يَنهَضَ بأَعباء[1] خِدمته؛ ويدفعَ عن حِماهُ المُؤْذين، ويذُودَ[2] عن حِياضه المُدَلَسين[3].

ومن هذه الحُقُــوقِ تكثيرُ سَــوادِ المُتَعَلِميــن، المُتَخلِّقين بصحيح الأَخلاق، المَغرُوسِ في قُلوبهم تلك الحِكْمةُ المشهورة: «حُبُّ الوطــن من الإيمان». وذلك لا يكــون إلا بِبَذْل المالِ في سبيل المَصالح العامَّة، وإفراغ الوُسعِ في تَشْييد المدارس، التي تنْفُثُ في رُوع النَّابتةِ[4] رُوحَ الوطنيَّة؛ وتُنبتُ في نُفوسهم غراس الفضيلة والعمــلِ الصَّالح، وتُهيبُ[5] بِهــم لِيَنْهَضُوا ـ متى بلَغُوا مَبْلَغَ الرَّجُوليَّة ـ إلى خدمة هذا الوطن التَّعِس، الذي ضَرَّهُ أبناؤُهُ، أَكثرَ مِمَّا ضَرَّ به أَعداؤُه.

---

(1) الأعباء: الأعمال الثقيلة. والمفرد عبء.

(2) يذود: يدفع ويمنع.

(3) التدليس: أن يظهر المرء الشيء على خلاف ما هو عليه. وأصل معناه: كتم عيب السلعة عن المشتري.

(4) تنفث: تلقي. الروع: القلب. النابتة: النشئ.

(5) تهيب بهم: تناديهم.

ومن هؤلاء النَّابتين تَصدُرُ مُقَوّمـاتُ الحياة لهذه الأُمَّة التي كادتْ ـ بسَـببِ خُمولِها وجُمودها ـ تُكْتَبُ في أَسـفارِ[1] الأُمَمِ المُندرسة[2].

مَتَى نَشـأ هـؤُلاء التَّلاميـذُ ـ الَّذيـنَ يُرَبَّونَ تلـكَ التربية الصحيحة، ودخلوا مُعتركَ الحيـاةِ الاجتماعيَّة ـ كان منهم ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَرَ على قلب بَشَر.

التربيةُ الحقُّ رُوحُ الحيـاة؛ والعلمُ دَمُ الوطـنِ. ولا تُمْكِنُنا الحياة السعيدة إلا بهما. فالتربيةُ تدفعُ إلى السَّعي والعمل. والعلمُ يُرشدُ إلى طريق السعادة.

نحنُ في حاجةٍ إلـى المَصانع الوطنية، والتجـارةِ الوطنية؛ لِتَنالَ البلادُ الاستقلالَ الاقتصاديَ، وتَتَخلَّصَ من نِير الحاجة إلى الأجانب. فَمَن سعى نحوَ اسـتقلال الوطنِ وتَخليصِه من مَدِّ يَدِهِ إلى غيره، كان الرَّجُلَ الوطنيَّ، الذي تَنْحَنِي أمامَهُ الرَّؤسُ إجلالًا.

إنَّ لكل نتيجة مُقدِّماتٍ. ومُقَدِّماتُ الاستقلالِ تربيةُ الناشئين وتعليمُهم؛ ليكونوا يَـدَ الوطن العاملةَ، وَرُوحَـهُ المُقَوِّمة، ودَمَهُ الجاريَ في عُرُوقه. فعلِّموا الأَولاد، تَسعَدِ البلاد.

حُبُّ الوطنِ مَلَكـةٌ[3] من مَلَـكات النَّفـسِ، لا يُنكِرُها إلا

---

(1) الأسفار: الكتب. والمفرد سِفْر.

(2) المندرسة: المنقرضة التي انطمس ذكرها ومجدها.

(3) ملكة: صفة راسخة.

الأَفَّاكون[1] أو الواهمون. وإنَّما يَصْدِفُ[2] النَّفسَ عن هذا الحُبّ فســادٌ في التربية، أو خَلَلٌ في الدماغ، أو عِرقٌ كان أجنبيًا؛ فهوَ يَدفعُ الدَّخيلَ إلى مُعاداة وَطَنٍ فيه وُلِد، وفي أرضه نَشأ، وبِلبانه[3] تَغَذَّى؛ ويَجعلُه يَحِنُّ إلى أرض لم يَعرِفها؛ سوى أنها كانت مَنشأ أبيه أو آبائه من قبلُ؛ ويُشَــوِّقُه إلى قوم لــم يعرف عاداتِهم، ولا يَفهمُ لُغَتَهم، ولا تَجمَعُه بهم جامعةٌ؛ سوى أنَّهُ كان منهم. ويا لَيتَ من كان مَثْلُهُ يكتفي بذلك الحَنين؛ فلا يَسعى لانتقاص وَطنٍ آواهُ ونَصَرَهُ، بعد أن لَفَظَت آبــاءَهُ بِلادُهم لَفْظَ النَّــواة[4]؛ ولا يَعمَلُ لإحباط[5] كلِّ مَسعى يُسعَى لإنهاضه.

فإليك، أيُّها النشيءُ الكريمُ، تُبسَطُ يَدُ الرَّجاء. فانهَض، رعاك اللهُ، لِلعلم، وتَخَلَّقْ بأخلاق أسلافِك، فإنَّ الوطنَ يُناديك: إني لك منَ المُنْتظِرين.

واحذَر أُولئك الدَّسّاســين[6]؛ وتَيَقَّــظ لِحبائلهم[7]؛ وتَنبَّه لِشُــرورهم. فَهُم داءُ وطنِــكَ العُضالُ[8]، والسُّــمُّ القتّالُ. وما

---

(1) الأفاكون: الكاذبون أشد الكذب.

(2) يصدف: يصرف.

(3) اللبان: الرضاع.

(4) لفظت: طرحت. واللفظ: الطرح. النواة: بزرة التمر ونحوه.

(5) إحباط: إبطال.

(6) الدســاس: المرائي بعمله. يندس أي يدخل مع الأخياروليس منهم. والدساس: حبة خبيثة تندس هادئة حتى إذا أمكنها اللسع لسعت.

(7) الحبائل: المكايد. وأصل معناها: المصايد.

(8) العضال: الشديد الغالب.

نَهَكَ[1] الوطنَ من قَبلُ، وما يَعمَــلُ على إضعافه من بعدُ، إلا هؤلاء المُجرمون. فإنَّهم أعدى الأَعداء، وأدوَى الأدواء[2]. فَكُنْ عليهمُ الخَطْــبَ النَّازل، والــدَّاء القاتل، والمــوتَ الزُّوأَم[3]، والعينَ التي لا تنام. وإياك أن يَطيبَ لكَ المُقامُ، قبلَ أن تَرّيش السِّهام[4]، وتَقِفَ بالمِرصاد، لَأهل الفساد.

فحَقِّقِ الأمل، يَحيَ بك الوطن.

* * *

(1) نهك: أضعف وأضنى وأتعب.

(2) أدوى الأدواء: أشدها. والأدواء: جمع داء.

(3) الزوام: السريع الكريهة.

(4) تريش الســهام: تلزق عليها الريش. وريش الســهام: كناية عن التهيوء للرمي. السهام: النبل.



الحُرِّية

إنَّ للأُمَم آجالًا[1]. وأَجلُ كُلِّ أُمَّةٍ يومَ تَفقِدُ حُريَّتَها.

الحُرِّيةُ هِبةٌ من الخالق للمخلــوق، يُصَرِّفُها فيما يَعُودُ على نفسه وعلى غيره بالسَّعادة والخيرة.

وتَدُلُّ في اللغَة على معنى الخُلُــوص؛ فالحُرُّ خلافُ العَبدِ، لخُلوصه من الرِّقّ. وحُرُّ كلِّ شيءٍ خِيارُه. والحُرُّ من الطّين والرَّملِ هو الطَّيبُ منهما. ورَملــةٌ حُرَّةٌ، أي صالحــةٌ للإنبات. وحُرُّ كلِّ أرضٍ أَطيَبُها.

فأنتَ تَــرى أنَّ هذه المادَّة تَــدُلُّ على الطَّهــارة والجُودة[2] وخُلُوص الشِّيء مِمَّا يُكدِّرُ صفاءهُ وجُودَتَه.

والحُرُّ ـ بالمعنى المَدني الصحيح ـ من كان خالصَ التربية، نَقيَّ النَّفس، مُتَمسِّكًا بالفضائل، نافرًا من الرذائل، كاسرًا عنه قُيودَ العُبُوديَّة، عاملًا بما يطلُبُهُ منه الواجب.

---

(1) الآجال: جمع أجل، وهو مدة الشيء ووقته الذي يحل فيه وينتهي إليه.

(2) الجودة بضم الجيم: الصلاح.

إنَّ الانســـانَ لم يُخْلَق ليكون عبدَ غيــره، ولا لِيكونَ كُرَةً[1] تَتَقاذَفُهـا الأهواء[2]، وتعمَــلُ على تحريكها أيــدي الزُّعماء[3]، وتُصرِّفُها حَسْبَ رَغائِبها[4] نُفُوسُ الكُبَراء؛ بَلْ خُلِقَ لِيَعملَ مُنْفردًا ومُجتمِعًا بمُقتضَى السُّنَّةِ الإلٰهيَّة العامَّة، وهي الحريَّة.

ولم تُسلَب هذه النِعمةُ الرَّبَّانيَّة الكُبرَى من كثير من الناس إلا بِسَبَب ما أفسَــدَهُ الظَّالمون من نُفُوســهم؛ فلم يَدَعُوا إلى تنوير أذهانهم بالعلم ســبيلًا؛ لأنَّ الظالميــن يَعلَمون يَقِينًــا أنَّ العلم الصَّحيح يَهْدِي إلى معرفة الحُقُوق؛ فهوَ الشَّــرارةُ التي تُوقِدُ في النُّفُوسِ الهِمَم؛ وتَرَبأ[5] بالعاقل أن يكون آلةً تُدِيرُها المحرِّكات الاستِبداديَّة.

وقد قال عمرُ بنُ الخَطَّابِ لِعَمْرو بنْ العاصِ، يومَ ضَرَب وَلَدُهُ القِبْطيَّ: «مَتى استعْبَدْتُم الناس، وقد وَلَدَتْهُم أُمَّهاتُهم أحرارًا!».

ألا إنَّ الحُرَّ لا يكون حُرًّا إلا إذا تَهَذَّبت نفســه، ونَمَتْ فيها مَلَكة الإرادة، وحَظِيَ من العلم الصحيح بِحظٍ غير قليل؛ ثُمَّ أقدَم على تحرير نَفسه من رِبَق[6] من يَملكُها بالقوَّة والجَبَرُوت. فَمنْ

---

(1) الكرة: كل جسم مستديرة. والمراد بها هنا الكرة المعروفة التي يُلعب بها.

(2) الأهواء: الأغراض المختلفة، وهي جمع هوى النفس.

(3) الزعماء: الرؤساء، والمفرد زعيم.

(4) الرغائب: المشتهيات. وهي جمع رغيبة، وهي الأمر المرغوب فيه.

(5) تربأ بالعاقل: ترفعه. ربأ به عن كذا: رفعه عنه فلم يرضه له.

(6) الربق: جمع ربقة وهي العروة من حبل فيه عدة عرى تشد به البهائم.

لم يكن كذلك فَقدْ شَسَعَتْ بَينَه وبينَ الحرِّية المَساوِفُ[1]؛ وكان بَينَهُما مَفاوِزُ جَمَّةُ المَخاوف[2].

ليس بالحُرّ من اتخذَ الحريَّةَ عُنوانًا للرذَّائل، وطريقًا للمفاسد، وسيفًا يَجتابُ به أردِيةَ[3] العِفَّة، ورُمحًا يَطْعُنُ به الفضيلة، وسَهْمًا يُمَزّقُ أعراضَ الناس.

وليس من الحريَّة أن يَفعَلَ الإنسانُ ما يَضُرُّ بهِ وبغيره: من إسراف في الأموال، وإضاعةٍ للإنسانية، وإباحةٍ للمُنكَرات، وسعيٍ في إفساد الهيئةِ الاجتماعيَّة، بِمَا يأتيه من ضُروب الإيذاءِ والنَّميمة والغِيبةِ[4] والعُدوان، وغير ذلك من نَقائص الأَخلاق.

إنَّ كثيرًا من الناس يَدَّعي الحريَّة، وقد لَبِس لَبُوس[5] العُبُوديَّة. فَهُوَ أسِيرٌ لِشَهواته، عَبْدٌ لزُعمائه وأمرائه، مَملوك لِنَفسه الأمَّارة؛ تَدفعُهُ إلى المُوبِقات[6] فيُجِيب؛ وتَحْفِزُهُ إلى السِّعاية بغيره[7] والضَّرَر به، فَيَهْرَعُ إلى تَلَبيتها[8]. وإن دعاهُ داعي العقل

(1) شسعت: بعدت. المساوف: جمع مسافة.

(2) المفاوز. الأماكن المهلكة، والمفرد مفازة. جمّة: كثيرة.

(3) يجتاب: يقطع. الأردية: جمع رداء، وهو الثوب.

(4) الضروب: الأنواع. النميمة: نقل أحاديث الناس لإيقاع المفاسد. الغيبة: أن تذكر الناس بما يكرهون.

(5) اللبوس: ما يُلبس.

(6) الموبقات: المعاصي المهلكات.

(7) تحفزه: تسوقه وتدفعه. السعاية: الوشاية.

(8) يهرع: يسرع. التلبية. الإجابة.

إلى ما يُحييه، وأهابَ به حــادي[1] الوجدانِ إلى ما يُعليهِ، وناداهُ مُنادي الشّهامة إلى ما يَنْهَضُ بِشَعْبهِ ويُقَوّيه، تَصامَّ[2] عن النِّداء، أو سلك طريقَ المِراء[3]. ثمَّ هو بعدَ ذلك يَدَّعي أنَّه إنسانٌ حُرّ. وما الإنسانيَّة والحريَّة إلا عاملان لِلعُمْرانِ، ورُكنان للاجتماع.

أيَّة أُمَّــةٍ أرادت أن تكون في ذُروةٍ من الحضارة[4] ســامية، ومَكانةٍ من الســعادة عالية، فَعَلَيها أن تُربَيَ أفرادَها على الحريَّة الصحيحة، وتُغَذِّيَ أبناءَها بِدَرِّها[5]. الطَّهُور الخالص.

فانهَضُوا، أيُّها النَّاشِـئون، إلى الحريَّة الخالصة، الخالية من شَوائب المُدلّسين[6]؛ فإنَّها سَبيلُ النّجاح؛ وهي الحياةُ السَّعيدة.

* * *

---

(1) أهاب به: ناداه وزجره وصرخ به. الحادي في الأصل: من يحدو الإبل أي يسوقها ويغني لها لتقوى على السير.

(2) تصام: أظهر الصمم، أي الطرش وليس فيه.

(3) المراء: الجدال والمنازعة واللجاج.

(4) الذروة: أعلى كل شيء. الحضارة: المدنية.

(5) الدر: اللبن.

(6) الشوائب: الأخلاط والعيوب والأدناس. المدلس: من يظهر الشيء على خلاف ما هو عليه، وأصل التدليس: كتم عيب السلعة عن المشتري.



أنواعُ الحرِّية

إنَّ للحُرِّية أنواعًا: منها حُرِّيةُ الفَرْد، وحُريةُ الجماعة، والحرِّية الاقتصاديَّة، والحرِّيةُ السِّياسيَّة. ولا تَقُومُ لِشعْبٍ قائمةٌ إلا بهذه الحرِّيات الأَربع.

فَحُرِّيةُ الفردِ ـ وقد تُسمَّى الحرِّية الشَّخصيَّة ـ أمرٌ عظيمُ الخَطَر[1]. وعليه تَتوقَّفُ حرِّيةُ الجماعة؛ لأنَّ الجماعة تَتألفُ من الأفراد. فَحرَّيتُها لا تكونُ إلا بحرِّيةِ أفرادها. فَعلى الأُمَّة ـ التي تَوَدُّ أن تكونَ حُرَّةً ـ أن تَسعَى لتربية أفرادِها تربيةً حُرَّة؛ لِيَتَكَوَّنَ منها مجموعٌ حُرّ.

وحرِّيةُ الفردِ تَشمَلُ حرِّيةَ القول والكتابة والطِّباعة ونَشرِ الفِكر؛ من غير رَقِيبٍ ولا مُؤاخِذ؛ على شَرط أن لا يُخِلَّ ذلك بحرِّية غيره.

فهو حُرٌّ أن يَعتقِدَ ما يشاء: من العَقائد الدينيَّة والعِلميَّة والسياسيَّة والاجتماعية؛ وأن يُجاهِرَ بذلك، إلا إن دَعَت مُجاهَرتُهُ

---

(1) الخطر: الشرف وارتفاع القدر.

إلى انفصام[1] عُروةٍ من عُرَى الاجتماع؛ وأَن يَتصرَّف بما يَمْلِكُ: من نَقْدٍ وعَقارٍ[2] وغيرهما؛ إلا إذا أَدَّى عَمَلُهُ إلى السَّـفَه[3]؛ فَلَهُ حِينئذٍ حُكمُ المَحْجُورِ عليه[4].

وصَفْرةُ القولِ في حُرِّية الفَرْدِ، أنَّها أمــرٌ يَنْتَهي حَيْثُ تَبتدئُ حُرِّيةُ سِواهُ. فالواجب على الفرد أن يُحافِظَ عى حُرِّية غيره، كما يُحافظُ على حُرِّية نَفْسه.

وحُرِّيةُ الجماعةِ أن يكون لها حقُّ الاجتماعِ، أينَ شاءَت، ومتى شاءَت؛ إلا إن كانت مُسلَّحَةً فتُمْنَعُ من ذلك. لأَنَّ عملَها رُبَّما أدَّاها إلى ما ينافــي الحرِّية الصحيحة؛ وأن يكون لهــا الحقُّ في تأليف الجمعيَّات على اختلاف مَشاربها من عِلميَّة وأدبية ودينيَّة وصناعيَّة وخيريَّة وسياسيَّة؛ على شرط أن تُطابِقَ أنظِمتُها[5] ما يَسُنُّهُ مَجْلِسُ الأُمَّةِ من القوانين الدُّســتوريَّة. لذلك وَجــبَ أن يكون رجالُ هذا المجلسِ مِمَّن عُرِفُــوا بالحرِّية والعلم والصِــدق وصحَّةِ الوجدان والعقل والرَّويَّة؛ كيلا يَسُنُّوا للأُمَّةِ ما يُقيِّدُ حُرِّيتها، ويُنافي مَصْلَحتَها.

والحرِّية الاقتصاديَّةُ، هي حياة الأُمَّةِ الماديَّة. فإن لم تُطلَّقْ لها حرِّيةُ التجارةِ والزراعة وإنشــاء المَصانعِ واســتخراجِ المَعادن،

(1) الانفصام: الانقطاع. العروة: ما يوثق به ويعول عليه. وأصلها مدخل الزر.
(2) النقد: الدرهم والجمع نقود. العقار: بفتح العين. الدار والأرض ونحوهما.
(3) السفه: خفّة العقل والجهل والطيش.
(4) المحجور عليه: الممنوع من التصرف بماله بسبب السفه أو الجنون أو التبذير.
(5) الأنظمة: القوانين.

للانتفاع بما تُكِنُّهُ[1] الأرضُ من موارد الرزق، كانت حياتُها كأمرئٍ شُدَّ وَثاقُهُ[2] ووُضِعَ الحبلُ في عُنُقهِ، وقد مَسَك بِطَرَفيهِ رَجُلانِ ذَوَا بأسٍ شـــديدٍ، فَهُما يُهدِّدانهِ بالخَنْق، ويَتَوعدانـــهِ بالموت، وهو يَترقَبُ[3] أن تَفِيض روحُهُ من ساعةٍ إلى أُخرى.

إنَ أوروبا لم تَقبض على ناصية[4] الثَّروة، إلا بعدَ أن أَطلقت الحرِّية الاقتصادَّية من قُيُودها، مَعَ مـــا أطلقَته من أنواع الحرِّية. فَفِي يَدِها اليوم أرواحُ المَشـــارقة؛ فإن شاءت قَتْلهُم مَنَعَت عنهم أموالها؛ ورَدَّت إليها ما في بلادهم من ذَهَبِها.

إنَّ بِلادَنا غَنيَّةٌ بِتُربتها ومَعادِنها؛ ولكنَّها فقيرةٌ برجالها:

يأتي الأَجنبيُّ بلادنا؛ فَيَبتاعُ[5] أَرضنا، ويَنتَفع بخيراتها، أو يَنالُ فيهـــا «امتيازًا» فَيَســـتثمِرُ مَواضعَ منها؛ ويَسْـــتَخرجُ ما في بُطونها من أجِنَّةِ[6] المَعادِنِ، التي تُـــدرُّ عليها الذَّهَبَ والفِضَّة؛ ونحنُ عن ذلكَ لاهُون، وبأهوائنا[7] مُشتغِلون، وعلى فَصْم عُرَى الوَحدةِ عاكفون.

---

(1) تكنه: تخفيه.

(2) الوثاق: بفتح الواو: ما يشد به الأسير من حبل وقيد ونحوهما.

(3) يترقب: ينتظر.

(4) الناصية: مقدم الرأس.

(5) يبتاع: يشتري.

(6) الأجنة: جمع جنين وهو المستور من كل شيء، ولذلك يسمى الولد ما دام في بطن أُمه جنينًا.

(7) الأهواء جمع هوى، وهو ميل النفس الفاسد.

والحرِّية السِّياسيَّةُ أن تكون الأُمَّة مُستقِلَّةً استقلالًا تامًا بكلّ شأنٍ من شُؤوها؛ غير مُقيدةٍ بسلاسلِ أمّةٍ غيرها. فهيَ التي تَضَعُ أنظمتَها، التي تُلائم مِزاجَها؛ وتُمضِي العُهودَ مَعَ مَنْ شاءَت من الأُمم؛ وتَضْربُ الضَرائبَ على ما يَرِدُ إليها من سِلَعِ الدِّيار الأجنبية. وتَبْذلُ الوُسْعَ لِتَنْشيط الأعمالِ الزراعيَّة والاقتصادية ودُورِ الصناعاتِ الوطنيَّة؛ إلى غيرِ ذلك من مُمَيّزات الأُمم المُسْتَقِلَّة.

ولا تَتِمُّ هذه الحرِّية إلا إذا وُفِّقت الأُمَّةُ لتَثبيت أركان الحرِّيات الثلاث التي تَقدَّم ذِكرُها. فإن لم تكن الأُمَّةُ كذلك كان سَيْرُها نحوَ الترقي بَطِيئًا، وأنَّى للظَّالع أن يُدركَ شأْوَ الضَليع![1].

يَجِب على الأُمَّةِ ـ إن أرادتِ الحياةَ ـ أن تَسعَى لِبَثْ أَنواعِ الحرِّية الأَربعةِ في نُفوسِ أَبنائها. فإنَّ الأُمَّةَ إن فَقَدَت حُرِّيتها ـ التي هيَ قِوامُ حياتها ـ كانت أَقربَ إلى الانحلالِ والزَّوال، منها إلى البَقاء.

فَتشَدَّد، أيها النّشءُ الكريم، وتعلَّم دُرُوسَ الحرِّيةِ الصحيحة؛ واحذَر أنْ تَظُنَّ الحرِّيةَ ما يَظُنُّهُ من لا خَلاق لهم. ثم اسعَ لنَشْرها في أُمَّتِك. واجهَدْ نَفْسَك في تحرير بلادك من رِقّ العادات السَّافلة، والأَخلاقِ الفاسدة. واتَعب لتَكْسِرَ عنها أغلالَ

---

(1) الظالع: من يغمز في مشيه لشبه عرج فيه. الشأوة: الغاية. الضليع: القوي الشديد الأضلاع. والمعنى لا يصل الضعيف إلى ما يصل إليه القوي.

العُبُوديَّة التي تَنُوءُ بِها[1]. فَعَسَى أَن تَنْشَطَ من عِقالها[2]، وتطرَحَ عنها قُيُودَها؛ فتكونَ بِذلكَ أُمةً حُرَّة، تسـتطيعُ البقاءَ أمامَ تيَّارِ مَدَنيَّةِ الأُمَم.

فإنَّ للأُمَمِ آجالًا. وأَجَلُ كلِّ أُمةٍ يومَ تَفْقِدُ حُرِّيتَها.

* * *

(1) الأغلال: القيود. تنوء بها: تثقلها.
(2) تنشط من عقالها تحل منه. والعقال: حبل يعقل به البعير في وسط ذراعه.



الإرادة

ما رأيتُ أَحدًا جَزَمَ[1] إرادتَهُ على أَمـــر إلا كان، ولا عَزَمَ[2] شيئًا إلا وصل إليهِ.

ذلكَ، أنَّ الإرادةَ رَغبةٌ في الأَمر يَتبعُها سعيٌ على عمله. ولا شكَّ أَنَّ الأَمرَ كائِنٌ متى اجتْمَعَ لهُ كلُّ هذهِ الدَّواعي[3].

وقد عَبَّـــرَ الصُّوفيَّةُ عن ذاك بِقولهـــم: «إنَّ للهِ عِبادًا إذا أرادُوا أَرادَ». فكأَنَّهم جَعَلوا إرادةَ اللهِ تابعةً لإرادة المُريد من عِباده. وهم لم يَعْنُوا بذلك إلا ما شـــرَحناه. فإنَّ المُسَبَّباتِ مَرهونةٌ لأَسبابها. وقد جَعَلَ اللهُ حُصُولَ المُراداتِ مُتَوقِّفًا على جزم الإرادة.

وقد ورَدَ في الحديث: «**إنما الأَعمالُ بالنِّياتِ**». ولا رَيْبَ[4] أَنَّ مَن صَدَق العَزيمة، وأَحســـنَ النِّية، ووجّهَ الإرادة، وأقدم على ما

---

(1) جزم الأمر: قطع به قطعًا لا عودة فيه.

(2) عزم الشيء وعزم عليه: عقد ضميره على فعله وقطع عليه وأمضاه من غير تردد فيه.

(3) الدواعي: الأسباب.

(4) لا ريب: لا شك ولا شبهة.

يَرَغبُ فيه بِقلبٍ مُرِيدٍ، نال ما يَتَمَنَّاه، وفازَ بمُشتهاه؛ لأنَّ المُسَبَّب ـ وهو المُراد ـ كائنٌ عندَ وُجودِ السَّبَبِ ـ وهوَ الإرادةُ ـ.

الإرادةُ تَربيــةُ النَّفْس علــى الحزم والإقدام علــى الأَعمال المُمْكِنة، حتَّى تَصيرَ مَلَكةً[1] من مَلَكاتها. وهي سعادةٌ لِمَن تَخلَّقَ بها ما وراءَها سَعادةٌ. فيها يعمَلُ الإنسان؛ وبها يَترَقَّى؛ وبها يَترُكُ ما أَلِفَهُ من العادات الضَّارَّة والأَخلاق الشائِنة[2]؛ وبها يكون أميرًا على نَفسه، سُلْطانًا على مَلَكاته؛ وبها يكونُ إنسانًا كلَّ الإنسان. فإنَّ الإنســان الكاملَ من لا يَصُدُّهُ عن مُراده المُمْكِنِ صادٌّ؛ ولا تَقِفُ شَهَواتُهُ وعاداتُهُ عَقَبةً[3] في سبيل المُراد.

إنَّ الأَنبياءَ والفلاسفةَ وعُظَماءَ الرجال، لم يَستطيعُوا أَنْ يَبُثُّوا ما تَوخَّوْهُ[4] من العقائــد والتَّعاليم، ولم يَصِلوا إلى ما أرادُوهُ من الأَعمال ـ التي كُتِبَت بالنُّور على جَبين الدُّهُور ـ إلا بالإرادة. فإنَّ مــن مُقْتضَياتِها الحَزمَ والثَّبــاتَ على العمل حتــى يكون؛ ولو أصابهم في هذه السَّبيل من المصائب ما يَدُكُّ[5] الجبال، ونابهم من النوائب ما يَفُلُّ الحديد[6].

---

(1) ملكة: صفة راسخة.

(2) الشائنة: العائبة.

(3) العقبة: المرتقى الصعب.

(4) يبثوا: ينشروا. توخوه: قصدوه.

(5) يدك: يهدم.

(6) ناجم: أصابهم. النوائب: المصائب. يفل: يكسر.

وإنَّ ما نراهُ من فَشَــل أعمالِ كثيرٍ من العامليــن، ناتجٌ من إهمال تربيــة الإرادة فيهم. فَهُم لا يَســتطيعون الثَّبــاتَ على ما يَقُومون به؛ بَلْ يُوَلُّون الأَدبارَ[1] عندَ أَوَّلِ صَدمةٍ تَصدِمُهم. وإنما الصبرُ عندَ الصَّدمةِ الأُولى.

الإرادةُ تُوجبُ الصَّبر، وعــدَمَ التَرَدُّدِ في الأُمــور، واحتقارَ الصُّعوباتِ التي تَعْتَوِرُ[2] المشــروعاتِ المفيــدة. وذلكَ يَوجبُ النّجاحَ في الأَعمال بَتَّةً[3].

متى رَسَخَت الإرادةُ في النَّفس تَحَكَّمَ العقلُ، وسَقطَ هَوَى النفس الأَمَّارة؛ فكان الإنســان في أعلى مَراتــبِ الكمال. لأَنَّ مَلكةَ الإرادة تَطبَعُ في النُّفُوس الفضيلــة، حتى تكونَ صالحةً مُهذَّبةً سَعيدة.

ومتى كثُرَ في الأُمَّة عَدَدُ الذين رَســخَت فيهم هذه المَلَكة، سارت في العُمران والتَّرَقي والمَدَنيَّة أشواطًا[4] عظيمة. وكلُّ أُمَّةٍ تَنهار دَعائمُ[5] مجدِها، وتتَقَوَّضُ أراكينُ[6] عزّها، يكون ذلك من قَحْط[7] الرّجال - رجالِ الإرادةِ - فِيها.

---

(1) يولون الأدبار: ينهزمون.

(2) تعتور: تأتي مرة بعد أخرى.

(3) بتة: قطعًا. بت الأمر: إمضاء بلا تردد.

(4) الأشواط: جمع شوط وهو الجري مرة إلى الغاية. والسباق قد يكون بشوطٍ أو أكثر.

(5) تنهار: تسقط. الدعائم: جمع دعامة وهي عماد البيت ونحوه.

(6) تتقوض: تتهدم. الأراكين: جمع أركان.

(7) قحط الرجال: فقدانهم أو قلتهم.

أَلا، إنَّ من ضَعُفَت إرادتُهُ كان صغيرَ النَّفس، وضِيعَ المَنزِلة؛ تَلعَبُ به الأَهواء[1]، وتَعْبَثُ[2] به إراداتُ الصِبيان، بَلهَ[3] الرجالَ. فيكون كُرَةً تَتَقاذَفُها الأغراض، وهَدَفًا تُراشُ[4] لهُ السّهام. فإن أتاهُ آتٍ بأمر، فَحَمَلَهُ على الاعتراف بأفضَليّتــه، أجابَ. ثمَّ إن جاءَهُ آخَرُ، فَدَعاهُ إلى القول بأَرذَلِيَّته. لبَّى. فهو لا يَستقِرُّ على حالٍ؛ بل تَتنازَعُهُ إراداتُ الرّجال، وتَعْتورُهُ دَواعي الأَهواء. إذ ليس له عاملٌ من نَفسه يَدفَعُ الباطلَ بالحقّ، ولا قلْبٌ ذَكِيٌّ يُفرّقُ بينَ الصَّحيح والفاسد. ومن كان كذلك فأَحرِ به[5] ألا يكونَ إنسانًا كاملًا.

فعَلى الأُمَّة، التي تَوَدُّ حياةً طيّبة وعيشَةً راضية، أن تُرَبِّي مَلَكةَ الإرادةِ في نُفُوس أَطفالها. فإنَّ الإرادةَ سبيلُ السَّعادة.

يا مَعْشَر النَّاشِئينَ، أنتُم عمادُ الأُمَّة. أنتم دِعامةُ مَجدِها. أنتم رِجالُها في الآتي. فَتعَــوَّدُوا أن تكونوا مُريدِيــن. ولا تَعْبَئُوا بما يَحُولُ بينَكم وبين ما تُريدون. فَخُلُقُ الإرادةِ رأسُ الأَخلاق، وهو عيْنُها المُبْصِرة، وقلبُها المُفكِّر.

جَرِّدوا الإرادةَ يَسْهُلِ المُرادُ؛ فإن للهِ عِبادًا إذا أرادُوا أَراد.

---

(1) الأهواء: الميول الفاسدة. وهي جمع هوى النفس.

(2) تعبث: تلعب.

(3) بله: اسم فعل أمر بمعنى دع واترك.

(4) الهدف: ما ينصب ليرمى إليه. تراش: يلزق عليها الريش. وريش الســهام: كناية عن التهيوء للرمي.

(5) أحر به: أجدر به.



الزَّعامة[1] والرِّئاسة

قَضَتِ السُّنَّةُ الإلٰهيَّة[2] أن يكون في كلّ نوع من المخوقات رئيسٌ ومَرؤوسٌ، وسائِسٌ[3] ومَسُوسٌ[4]؛ كيلا تَتَفرَّقَ الآراء، وتَتشَعَّبَ[5] الأهواء؛ فيكون من ذلك تَشَتُّتُ الشمْل، وتَوَهُّنُ[6] الحَبْلِ، وافتراقُ الجماعة، وشَقُّ عصا الأُلفة.

وكلُّ قومٍ لا رئيسَ لَهم يَرجِعون إليه في المُشكلات، ويَصْمُدُون إليه في المُعضِلات[7]، يُضحُونَ وقَدْ رَكبوا مُتُونَ الشَّوامِس[8]، ويَبيتُونَ في ليلٍ من الحَيْرةِ دامس[9].

---

(1) الزعامة، بفتح الزاي: الرئاسة والشرف.

(2) السُّنَّة الآلهية: النظام الإلٰهي أو الشريعة الإلهية التي اختطها الله لعباده.

(3) السائس: مدبر أمور الدولة والرعية.

(4) المسوس: الرعية التي يدبر أمورها السائس.

(5) تتشعب: تتفرق.

(6) التوهن: الضعف. وتوهن الحبل: كناية عن ضعف القوة.

(7) يصمدون: يلجئون ويقصدون. المعضلات: الأمور المشكلة.

(8) المتون: الظهور، والمفرد متن. الشوامس: الدواب التي لا تمكّن الراكب من ظهرها لسوء خلقها.

(9) دامس: شديد الظلمة.

إذا كانت الرُّوحُ قِوامَ الجسم، فالرُّؤساءُ في كل أُمَّةٍ هم رُوحُ اجتماعِها. فإن فَسَدُوا فَسَدَت، وإن صَلَحُوا صَلَحَت؛ لأَنَّ الأُمَّةَ لا تَقومُ لها قائمةٌ إلا إذا قام فيها زُعماء يَنْهَضُون بها إن عَثَرَت، ويُقَوِّمونها إن اعوجَّت، ويأخُذون بيدها إن سقَطَت، ويُرشِدونها إن ضَلَّت.

ولا يكونُ الرَّئيسُ رئيسًا حَقًّا، حتَّى تَتَوَفَّرَ فيه شُرُوطَ الرئاسة من العقل، والعلم، وصِحَّةِ الوِجدان، والمُروءَة، والشَّهامة، وطهارة السَّرِيرة، وحُسْنِ السِّيرة، والكرمِ، والبَذلِ الجَمِّ في سبيل إحياء الأُمَّةِ ونَشرِ العلم في رُبُوعها. فمن نَهَج هذا المَنْهَجَ[1]، وقام بهذه الأَعباء[2]، كان عَيْنًا من الأَعيان، ورئيسًا من الرُّؤَساءِ، وزَعِيمًا من الزُّعماءِ. وإلا فهو على الوَجاهة والرِّياسةِ والزَّعامة والشَّرَف طُفَيْليٌّ[3] دَخِيلٌ.

يَتَهافَتُ[4] كثيرٌ من ضُعفَاء العُقُول على الرِّئاسة، وليس لهم من شروطها حَبّةُ خَرْدَل؛ وقَدْ نَسُوا أَنَّ رئيس القومِ لِسانُهمُ النَّاطقُ، وقلبُهمُ المُفكِّرُ، وصَمَدُهم[5] في الشَّدائد، وحِصْنُهم

---

(1) نهج: سلك. المنهج: الطريق الواضح.

(2) الأعباء: الأحمال الثقيلة.

(3) الطفيلي: من يدخل في أمرٍ لم يُدعَ إليه، وهو نسبة إلى طفيل: رجل من أهل الكوفة كان يأتي الولائم من غير أن يدعى إليها. ويسمون من يفعل ذلك بالوارش أيضًا، كما يسمون من يدخل على القوم في شربهم فيشرب معهم من غير أن يدعى بالواغل.

(4) يتهافت: يتساقط، وأصله التساقط شيئًا بعد شيء.

(5) الصمد: من يصمد إليه الناس، أي يقصدونه بحاجاتهم.

عندَ النَّوائب، ومَوئِلُهُم[1] إنَ عضَّتهم الدّهرُ، وسَنَدُهم في كل جليلٍ من الأمر.

كانَ للأُمةِ عُصُورٌ لم يكن يَرأَسُها[2] فيها إلا السّادةُ المُخْلِصون، والبَرَرَةُ[3] المُصْلِحون. ثمَّ هَوَتْ بها كِفَّةُ المِيزان، فَرأسَها الفَسقَة الأدنياءُ، دُعاةُ الجهلِ والعِصيان، والطُّغاةُ السُّفهاءُ، أَولياءُ الشيطان.

أَلا، إنَّ الزَّمان قد استدار. فَقَد تَنبَّتِ الأُمَّةُ من رَقْدَتها[4]، واستَيقظت من غَفْلتها. فهي لا تَرضى أن تَبقَى في أسرِ من يَعمَلُ على هلاكها، ويَرَغبُ في استعبادها. ولا تُقِرُّ بالزَّعامة والرِّئاسةِ إلا للمُصلِحين الصَّالحين، الذين يَرغبونَ في الموت لتَحْيا الأُمَّةُ، ويُؤثِرون[5] المَتاعِبَ حُبًّا لراحتها؛ ويَرْضون بالشقاء رَغبةً في سعادتها.

فتقدَّمْ، أيُّها النَّاشيءُ، إلى العلم الكامل؛ وتَمَسَّكْ بالخُلُقِ الفاضل؛ وأَقدِمْ على العمل الصَّالح، مُسترشِدًا بالعقل الرَّاجح؛ لِتكونَ زَعيمَ[6] قومِك ورئيس عَشيرتِك.

---

(1) الموئل: الملجأ.

(2) رأسهم يرأسهم: صار رئيسًا عليهم.

(3) البررة: الأخيار.

(4) رقدتها: نومها.

(5) يؤثرون: يقدمون ويفضلون.

(6) الزعيم: سيد القوم ورئيسهم.

وإيَّاكَ أن تُحَدِثَك نَفْسُك بالزَّعامة، أو يَغُرَّك رَوْنَقُ الرِّئاسة، وأنتَ لستَ لهُما بأَهل؛ فَتجْلُبُ إلى قومك الوَيْل، وإلى نَفسِك الذُّل.

لا يَصلُحُ القومُ فَوْضَى لا سَراةَ لَهُم ... ولا سَراءَ إذا جُهَّالُهم سادُوا

والبَيْتُ لا يُبْتَنَى إلا لَهُ عَمَدٌ ... ولا عِمادَ إذا لم تَرْسُ أَوتادُ

فإن تَجَمَّعَ أوتادٌ وأَعمِدةٌ ... يومًا؛ فَقَدْ بَلَغُو الأَمر الذي كادوا[1]

* * *

(1) كادوا: أرادوا. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ [طه: 15] أي أريد إخفاءها. وقول الشاعر: «كادت وكدت وتلك خير إرادة» أي أرادت وأردتُ. وليست بمعنى قرب لأنها ليست هنا من أفعال المقاربة.



عشّاق الزَّعامة

إذا كانت الأُمَّةُ، التي لا زعيمَ لها يُرْشِدُها، تَسِيرُ في مَهْمَةٍ من الفَوضَى مُتشابِهِ الأَعلام[1]، مَخُوفِ المَسالك، بِعيدةٍ أرجاؤُهُ[2]، كأنَّ لونَ أَرضهِ سَماؤُهُ، فإنَّ الأُمَّةَ، التي يَكثُرُ عُشّاقُ الزَّعامةِ فيها، ويَنْمو عَدَدُ مُحِبِّي الرِّئاسةِ في مجموعها، أكثرُ منها فوضَى، وأَشَدُّ حَيرةً، وأَعظمُ وَيلًا.

حُبُّ الرِّئاسةِ داءُ هذا الشَّرقِ الوَبيل[3]. والتَّهافُتُ على الزَّعامة مَرَضُهُ المُزْمِنُ. وما مِن زَعيم يقومُ فيه، إلا خَفقَتِ الغَيْرَةُ في قُلوب قومه، واحتَدمَ[4] الحسدُ في نُفُوسهم؛ فتراهم يَعمَلون على السِّعاية[5] به، ويَبذُلون ما لَدَيهم من قُوةٍ لإسقاطه، ويُناصِبُونهُ العَداوة[6]، ويُصارحونهُ بالأَذَى. فإن كان زعيمًا حقًا فهوَ لا يَأبَهُ

---

(1) المهمه: الفلاة المقفرة المهلكة. الأعلام: الجبال. والمفرد علم.

(2) الأرجاء: الأطراف والنواحي. والمفرد رجًا.

(3) الوبيل: الشديد.

(4) احتدم: اشتمل.

(5) السعاية: الوشاية.

(6) يناصبونه العداوة: يظهرونها له. ويقال: ناصبه مناصبة أي قاومه وعاداه.

لِمناواتِهم[1]، ولا يَعبأُ بمصادمتهم؛ بل يَثبُتُ على ما يُريدُهُ لقومه من الخير ثَباتَ الرّجال، لا يُبالِي الأَهوال، ولا يَكْتَرِثُ لِلصُّعُوبات، ولا يَحْفِلُ بالمَخُوفاتِ. وإن تَزعزعَ لأَوَّل صَدْمة، كان ضعيفَ الإرادة، بَليدَ النَّفْس. وأَحرِ بِمَنْ كانَ كذلك أن لا يكونَ رئيسًا للقوم!

ما رأيتُ أحدًا لم تُحَدِّثْهُ نفسُهُ بالزَّعامة! وأَهلُ الزّعامةِ قليلٌ. فَهل الزَّعامةُ متاعٌ يُشْرَى؟ أو ثَوبٌ متى لبسَهُ الإنسانُ صارَ زَعيمًا؟!

إن الزَّعيمَ هوَ رُوحُ الأُمَّة. وهل تَرضى أُمَّةٌ أن يكونَ زعيمُها هَيَّ بنَ بيٍّ[2]، أو الضَّلالَ بنَ فَهْلَلَ[3]، أو الجهلَ ابنَ الغَباوة، أو الفُسُوقَ بنَ العِصْيان!

كلُّ قومٍ رأسَهم أوشابُهم[4]، وتَحَكَّمَ فِيهم جُهلاؤُهم، وكان زُعماءَهُم أنذالُهم، كان الخرابُ عاقِبَتَهم، والدَّمارُ[5] مُنْتَهاهُمْ.

ليسَ الرَّئيسُ من يبذُلُ المال، ويَبُثُّ الرجال، لترغيب النَّاسِ في رِياسته، والالتِفافِ حَولَ عَلَمِ زَعامته. وإنَّما الرَّئيسُ من كانت

(1) لا يأبه: لا يلتفت ولا يبالي. والمناوأة: المعاداة والمعارضة.

(2) هي بن بي، وهيان بن بيان: كناية عمن لا يعرف ولا يعرف أبوه

(3) فهلل: اسم للباطل، وهو غير منصرف العلمية ووزن الفعل باعتبار أنه على وزن جلبب.

(4) الأوشاب: الأخلاط من الناس كالأوباش. والمفرد وشب، بفتحتين، ومفرد الأوباش وبش، بفتحتين أيضًا.

(5) الدمار: الهلاك والخراب.

الرِّئاسةُ خُلُقًا من أخلاقه. وذلك لا يكونُ إلا في رَجُلٍ مَعروفِ الفضِيلة، آبي[1] الرَّذيلة، زَكيِّ الوِجدان، ثابتِ الجَنان[2]، عالي الهِمَّة، نَقيِّ الذِّمَّة، ذَكيِّ الفُؤاد، رَفيعَ العِمادِ[3]، تُرابيَّ النَّفْسِ، عِصَامِيِّها[4]، واضح الأَخلاق، طاهرِ الأَعراق[5]، عالمٍ بما تحتاجُ إليهِ الأُمَّة، ساعٍ نحوَ ما يُفيدُها ويُعلي شأَنها. ومن كان كذلك سادَ النَّاسَ وزَعَمَ عليهم[6]؛ وكانت لهُ الكلمةُ النَّافذةُ فيهم، والمَقامُ الأَرفعُ بَينَهُم.

عَجِبْتُ واللهِ - وَحُقَّ ليَ العَجَبُ[7] - لرَهْطٍ لَيسُوا في العِيرِ ولا في النَّفِير، يَسْعَونَ السَّعيَ الحَثيثَ[8] لتُقِرَّ الأُمَّةُ لهم بالزَّعامة؛ وهم أهوَنُ عليها من كلِّ هَيِّن، ولا مِيزَةَ لهم تَرفعُهم إلى المَقام الذي يَسْعَوْنَ إليه. وقدِ اتَّخذوا الوَقيعةَ[9] في أفاضل الأُمَّةِ، وأَكْلَ لُحومهم، وتَلطيخَ أعراضهم، سبيلا إلى ما يَقْصِدُونَ إليه؛ ليَخلوَ

(1) آبي الرذيلة: ممتنع منها.

(2) زكي الوجدان:صالحه وطيبه. الجنان: القلب.

(3) ذكي الفؤاد: متوقده وفطينه. رفيع العماد: سيد شريف.

(4) العصامي: من يفتخر بعمل نفسه. وعكسه العظامي وهو من يفتخر بآبائه. وهو نسبة إلى عصام بن شهبرة الذي قال به الشاعر: «نفسُ عصامٍ سوّدت عصاما». وفي المثل: «كن عصاميًا ولا تكن عظاميًا» أي اشرف نفسك كعصام لا بآبائك الذين صاروا عظاما.

(5) الأعراق: الأصول.

(6) زعم عليهم: تأمر عليهم وسادهم.

(7) حق له العجب، بصيغة المجهول: أي وجب عليَّ.

(8) الحثيث: الشديد السريع.

(9) الوقيعة: السب والشتم.

لهمُ الجَوُّ؛ فَيكُونوا هُمُ الرّؤساءَ والزُّعماءَ. ولم يَدْرُوا أنَّهم بِعَمَلِهم هذا يَنكَشِف عَوارُهُم[1]، ويَفْتَضِحُ أمرُهم؛ فَتَزدادُ الأُمَّةُ منهم نَفُورًا، وتُوسِعُهم احتقارًا وبُغضًا.

وهُناك رَهْطٌ، متى أخفَقَ في سَعيه، ولم يَنَلْ من الزَّعامة ما يُريد، قام باسم الدِّين، وهو أجحَدُ الجاحدِين، فَنسَبَ إلى غيره الكُفرَ والإلحادَ[2]، والضَّلالَ والفَسادَ، واتَّخَذَ لأهوائه الضَّالةِ سافلَ الوَسائل؛ ليَصْدِفَ[3] الأُمَّةَ عن ذلك الزَّعيم العامل، ويَصْرِفَ وُجُوهها عنه إليه، ويَجْعَل أمرَها بينَ يَديه، ورُبَّما صَدَّقهُ بعضُ السُّذَّجِ[4] من العامَّة، لأنهُ يَضربُ على وترِ الدِّين. ولكنَّ المَجموعَ لا يَلتَفِتُ إليه، ولا يُعَوِّلُ عليه، ولا يَعبأُ بِتُرَّهاته[5]، ولا يَجْنَحُ[6] إلى مُفتَرَياته.

فأُعِيذكُم بالله، مَعْشَر النَّاشئين، أن تَتَّخِذُوا لِلزَّعامة أمثالَ هذه الأَسباب؛ فتتقَطَّعُ بكمُ الأَسبابُ[7]، وتَنْفِرُ منكُم الأُمَّةُ ويَبْعُدُ ما بَيْنكم وبينَ الفضيلة.

---

(1) العوار: بفتح العين وضمها: العيب. وأصله العيب في السلعة.

(2) الإلحاد: العدول عن دين الله والطعن فيه.

(3) يصدف: يصرف.

(4) السذج: الذين لا خبرة لهم: والمفرد ساذج وأصل معناه: ما لا نقش فيه فكأن التجارب لم تنقش في قلوبهم.

(5) الترهات: الأباطيل.

(6) لا يجنح: لا يميل.

(7) الأسباب الأولى: الوسائل. والأسباب الثانية: الصلات والمودات. وأصل معنى السبب: الحبل.

إيَّاكم وحُبَّ الرِّئاسة، إلا إذا أتتْكُم مُنْقادةً تُجَرِّرُ أذيالها، بما لكم عند الأُمَّةِ من جميل الصُّنع، وطَريفِ الفضائلِ وتالِدِها[1].

واحـــذَرُوا، إن قام فيكم زعيـــم هُوَ أهـــلٌ للزَّعامة، وكانت قُلوبُكم مُطْمئنَّة إليه، أن يَغُرَّكمُ الحســـدُ، فَتنْهَضُوا إلى إسقاطه، وتَعملُوا على صَرْف وُجُوهِ الناسِ عنه. بل فَســـاعِدُوهُ على ما قام به، وأَعِينُوهُ على مَشـــروعِهِ، وكونُوا لهُ أيدِيًا تُسْـــعِفُهُ، وأَعضادًا تَدْعَمُهُ[2]. فإن فَعلتم ذلك كنتم لأُمَّتِكم من المُحْسِنين.

* * *

---

(1) طريف الفضائل: جديدها. وتالدها: قديمها.

(2) الأعضاد: الأهوان، والمفرد عضد. تدعمه: تسنده وتقويه.



الصِّدق والكَذب

لســتُ أعني بالصِّدق والكَــذِب ـ في هذا المقــامِ ـ ما هوَ مَعروفٌ لــكلّ واحدٍ؛ فإنَّ هذا الأَمرَ مــن البديهيّات التي يَعرفُها الصِّبيانُ. وإنّما أعني بهما صِدْقَ الفعــلِ وكَذبَهُ؛ فإنَّهما نَتيجتان للقولِ في حالي صدقهِ وكذبه.

لا تَقُل لأَحدٍ: إنَّك صــادقٌ أو كاذبٌ، حتى تَرَى صِدْقَ عَمله أو كَذِبَه ولا تَصِفْ قولا بصدقٍ أو كَذبٍ، حتَّى تَــرَى أثرَهُ؛ لأنَّ القولَ تَعْظُمُ قِمتُهُ، أو تَصْغُرُ، بنتيجته، ولا يَصدُق القولُ حَتى يَصدُقَ العملُ.

صِدْقُ الفعلِ نَتيجةٌ لازِمة لأصحاب الإرادة، الذينَ لا يَحُولُ بينَهم وبينَ تحقيقِ ما يقولون حائل.

تَرَى كثيرًا من النَّاس ـ حتى من لهم منازلُ عاليةٌ ـ بسَبَبِ ما يَتقلَّدُونهُ مِنَ الأَعمال السَّامية ـ يَقولون ما لا يفعلون؛ وإن طالبتَم بإنجاز أقوالِهم، والوفاء بوعُودهم، غاصُوا على انتحال الأعذار، ولجَئُوا إلى ما طُبعوا عليه من الرياء والنِّفاق، وأضاعوا الأَوقاتَ في تَرويــج المَعــذِرات. وما ذلــك إلا من ضعْــف الإرادة في نُفُوسهم، وعَدَم تَعَوُّدِهم صِدْقَ القولِ ليَصْدُقَ الفعل.

إن أجابَ الإنسانُ بالسَّلب، حينَ يُسأَلُ إنفاذَ أمرٍ، فلا يَلومُهُ أَحدٌ. بل يكونُ الرَّدُّ خيرًا من وَعْدٍ يَتْبَعُهُ المِطالُ والتَّسْـويفُ[1]. وإنَّما يُلامُ أشدَّ اللَّومِ من قال: أفعَلُ ثمَّ نَكَصَ[2] على عَقِبَيْه، ولم يَفِ بما وعدَ به. وما إخلافُ الوَعْــدِ من دَأَب[3] الرِّجال الكَمَلة، وما الكَذِبُ إلا من أخلاق السَّفِلَة[4].

يَجِبُ على المَرء قبلَ أن يَعِدَ بأسر أن يَتروَّى فيه حَتى يَقْتُلَه خُبْرًا. فإن رأَى أن في قُدرته أن يَفيَ بِه وَعَدَ؛ وإلا تَوقَّف. أمَّا مَن يعِدُ قبل التَّفكُّرِ والتأَمُّل أفي وُسعِهِ الوَفاءُ بما وعدَ به أم لا؟ فهوَ رَجُلٌ أحمَقُ أَهوَجُ[5]. وكثيرًا ما يَرمي الحُمْقُ بصاحبه في مَفاوِزَ منَ النَّدَمِ بَعِيدَةِ الأَرجاء[6].

وبعدَ فإن تَعْجَب لأَمرٍ، فاعجَب لقومٍ يقولون ويَعِدُون؛ وهم قد وطَّنُوا أنفُسهم[7] على عدَم الوفاء. وإنَّما يَدعُوهم إلى الكَذب ما أُشرِبَتْهُ نُفُوسُهم من فســاد التربية. ومن اعتادَ أمرًا، حتى صار خُلُقًا له، صَعُبَتْ إزالتُه من نفســه. فهوَ يُلازِمُهُ حتى يُدْرَج[8] في

---

(1) المطال: المماطلة. التسويف: أن تمدّ أحدًا مرة بعد مرة بقولك: سوف أفعل.

(2) نكص على عقبيه: رجع.

(3) الدأب: العادة.

(4) السفلة: بفتح السين وكسر الفاء، وبكسر السين وسكون الفاء: الأسافل والغوغاء والأوباش. وأما السفلة: بفتح السين والفاء، فجمع سافل ضد العالي.

(5) الأهوج: الطائش الأحمق، والمؤنث هوجاء، والجمع هوج بضم الواو.

(6) المفاوز: الفلوات المهلكة. والمفرد مفازة. الأرجاء: الأطراف والنواحي.

(7) وطن نفسه على الأمر: مهدها وذللها ليحملها على إتيانه.

(8) يدرج: يخل.

قبره. وإنَّ المَرءَ متى عُرفَ بِعَدَم الوفاء وكــذِبِ العمل، نَفَرَ منه النَّاسُ حَتى أخِصَّاؤُهُ؛ فَلا يَثِقُون بــه إن قال، ولا يَلتَفتُون إليه إن وعد. بل يَرَوْنَهُ كسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمآنُ ماءً[1]، حَتَّى إذا جاءَهُ لم يَجِدْهُ شيئًا.

ما انتشَرت هذه الخَصلةُ الشَّنعاءُ في أُمةٍ إلا فُقِدَتِ الثِّقةُ من نُفُوس أبنائِها. وفِقْدانُ الثِّقَةِ فِقدانُ الحياة.

فإيَّاكم، مَعشَر النَّاشئينَ، والكَذِبَ، فإنَّهُ يُؤدِّي إلى ثَلْمِ[2] تاجِ الشَّرَف. واحذَرُوا الإخلاف بالعهد؛ فإنَّهُ داعيةُ نُفورِ الأُمَّة.

إن كنتم قادرين على الوفاء، فَعِدُوا، أو على الفعل، فَقُولوا. وإلا فَدَعُوا الوعدَ والقول؛ كيلا تكُونُوا من الكاذبين.

* * *

(1) السراب: ما تراه نصف النهار من شدة الحر كأنه ماء. القيعة: أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال. الظمآن: العطشان.

(2) الثلم: الكسر والشق.



الاعتدال

مَنْ نشَدَ[1] الفضيلةَ فَليَطْلُبْها في الاعتدال:

فالاعتدالُ في الفِكْر والمَذْهَب والمأكَلِ والمَشْرَب والمَلْبَس والبَذْلِ[2] وكلِّ أَمر حِسِّيٍّ أو مَعْنويٍّ، هُوَ الفَضيلة.

ومن لزِمَ قَصْدَ السَّبيلِ[3] كانت عاقبةُ أمره السَّلامة، وكِلا طَرَفَيْ قَصْدِ الأُمورِ ذَميم.

الاعَتدالُ هوَ التَّوسُّط في كلِّ شيء.

الشَّجاعةُ فضيلةٌ؛ لأَنها وسَطٌ بينَ نَقيصَتيِ التَّهوُّرِ والجُبن.

والجُودُ فضيلةٌ؛ لأَنهُ قَصْدٌ بينَ رَذِيلَتَيْنِ: الإسرافِ والبُخْل.

وهكذا تجِدُ كلّ فضيلةٍ من الفضائل في الاعتدال، أي التوسُّط بينَ رَذِيلَتين.

---

(1) نشد الفضيلة: طلبها وبحث عنها ليهتدي إليها.

(2) البذل: العطاء.

(3) القصد: استقامة الطريق، والتوسط في الأمور. وقصد السبيل: الطريق المستقيم الموصل إلى الحق والفضيلة.

الذَّكاء، إن زاد أدَّى إلى الخَلَل في الأَعمال، وحَمَلَ على أُمور لا تَلِيقُ بالعاقل. وإن نَقَصَ كان بِنقصه البَلَهُ والغَباوة.

والتَّقوى إن جاوزَت حَدَّها كان منها الوَسوسةُ، التي تُؤَدّي في أكثر الأوقاتِ إلى تَرك العبادةِ والعُكُوفِ[1] على أعمال الفُسّاقِ العاصين. لذلكَ نَهَتِ الشَّرائعُ السَّماويَّةُ عن الغُلُو في الدِّين، وأَمرت باتِباعِ القَصدِ فيه. وقد وَرَدَ في الحديث: «إنَّ المُنْبَتَّ[2] لا أرضًا قَطَعَ ولا ظَهْرًا أبقَى».

والعلمُ، متى اتَّسَعَت دائرتُهُ في الإنسان، كانت عاقبتُهُ الجهل. وربُمّا وصلَ من جاوزَ الحدَّ في علمه إلى جهل كثيرٍ من حاجات نَفسِه.

والقاعدةُ الشاملةُ أنَّ كلَّ شيء جاوزَ حَدَّهُ انقلب إلى ضدّه. وهي قاعدةٌ تَعُمُّ الحيوانَ والنَّبات والجمادَ والمَعقولاتِ والحِسِّيَّاتِ والاجتماعَ والعُمران.

فالعاقلُ من ألزمَ نَفْسَهُ التَّوسُّطَ في الأُمور، والاعتدالَ في أحواله المَعاشِيَّة والاجتماعيَّةِ والدّينيَّة. فإنَّ الاعتدال هو السلامةُ وما ضَرَّ الأُمَّةَ إلا تَركُ الاعتدال.

---

(1) العكوف على الشيء: الإقبال عليه ولزومه والمواظبة عليه.

(2) المنبت: المنقطع. والمراد من رفاقه في السفر، الذي يحمل دابته على ما لا تطيقه من السير، رغبة في الإسراع، ليصل إلى غايته، فينقطع ظهرها تعبًا، فلا تقدر على مواصلة السير؛ فينقطع هو في الطريق، فيكون حينئذٍ ما قطع الأرض التي يسير فيها ليبلغ ما يقصد إليه، ولا أبقى ظهر دابته سالمًا، فكذلك من يجهد نفسه ويتعبها في العبادة وينقطع فيها فلا يلبث أن يملّها ويبغضها، فلا هو بلغ المقصود من إرضاء الله، ولا أبقى نفسه في الراحة.

فاعتَصِم[1]، أيُّها الناشئ، بالاعتدالِ. ولا تَدَعْ لِشَيطانيْ طرَفيِ الأمرِ سـبيلًا إليك. فَخيرُ الأُمور أوسـطُها؛ لأَنَّ فيـه الفضيلة. والفضيلةُ نُجْعَةُ الرَّائدين[2].

* * *

(1) اعتصم: تمسك.

(2) نجعة الرائدين: طلبة الطالبين. والنجعة في الأصل: الـكلأ والمرعى. والرائد: الرسول يرسله القوم ليرى لهم مكانًا صالحًا لنزولهم ومرعى مواشيهم.



الجود

المالُ ـ كالقوَّة ـ خادِمٌ للإنسان عندَ مَسِيس الحاجة.

إذا رأيتَ أحدًا، وقد هَمَّ بالبّطْش بــك، تَدفعُ عنك أذاهُ بما لَدَيك من قُوَّة.

وإن رأيتَهُ، وقدِ اعتَدَى على أَحدِ الضُّعَفاء، دَفَعَتْك الحماسةُ إلى مُقاومته ورَدِّ عُدوانهِ عن ذلــك الضَّعيف، صَدَقةً عن قُوَّتِك. وتَكونُ حماستُك أشدَّ، إن رأيت الأَعداء مُندفعةً إلى مُقاتلة الأُمَّة وتخريبِ بِلادها.

وكذا إن شَعَرَتْ نَفَسْك بحاجةٍ إلى أمرٍ من الأمور التي تَنتفعُ بها، فإنَّك تَدَفــعُ هذه الحاجــةَ بدَفع جُزء من مالــك تَبذُلُه في سبيلها.

وإذا وجدتَ بائسًــا، أو ضعيفًا لا حَوْلَ لهُ ولا قُوَّةَ، حَرَّكتك عاطفةُ المُرُوءَةِ والحَنان، فبَذَلت ما تَسمَحُ به نَفَسُك لِسَدِّ عَوَزِهِ[1] ودَفعِ حاجته.

(1) العوز: الضيق والحاجة.

وإن رأيتَ الأُمَّة كلَّها في حاجة إلى البّذْل ـ وأَنتَ قادرٌ على إصلاح فاسدِها ولَمِّ شَعثِها[1] ـ كان اندفاعُك إلى الإحسان أشَدَّ، وشُعُورُك بالحاجة إلى البَذْل أقوى.

وكما يَصْدِف[2] الجُبْنُ الإنســانَ عن رَدِّ من أرادَ به أو بغيره السُّــوءَ ـ فيكونُ عُرضةً لِلمُؤْذِين، ومَــروةً[3] لِلقارعين ـ فكذلك البُخــلُ يَصْرِفه عن البَــذْل فيما يحتاجُ إليه مــن الحاجات حتَّى الضَّرُوريَّةِ منها. ومن جَبُنَ عن دفع الأَذى عن نَفســه، وبَخِلَ بما يَسُدُّ به ثُغُورَ[4] حاجاته، فَأجدر به أن يَجْبُنْ في مأزِق[5] الدّفاعِ عن غيره، ويَبْخَلَ، ولو بقليلٍ من المال يَنفعُ به سواه.

وكما يُضَيِّعُ التَّهوُّرُ في أكثر الأحيان حياةَ من عَشِقُوا الإقدام على المَخُوفات ـ من غير تَرَوّ ولا تَفَكُّر، فلا يَنفَعُون بإقدامِهم ولا يَنتفعونَ ـ فكذلك الإســرافُ وتَبْذِيرُ الأموالِ فيما لا يُفيدُ، يكونُ داعيًا لضَياعها، وأن يَبيتَ صاحبُها بعدَها حزينًا آسفًا.

وكلُّ ذلك من نَتائج عَدمِ الاعتدال، فلنَلزَم الاعتدال.

---

(1) لَمّ الشعث: جمع المتفرق.

(2) يصدف: يصرف.

(3) المروة: واحدة المرو، وهي حجارة بيض رقاق براقــة صلبة تنقدح منها النار، وتُعرف بالصوان، ويقال فرع الدهر مروة فلان، أي أنزل به البلاء.

(4) الثغور: الشقوق وهي جمع ثغر. والثغر في الأصل: الشق بين الجبلين، وموضع المخافة من البلد يخاف هجوم العدو منه.

(5) المأزق: موضع الحرب، والمضيق.

صاحِبُ المالِ يُتْلِفُ مالَهُ الإسرافُ والإنفاقُ على ما لا خيرَ فيه لنفسـه ولا لأُمَّته؛ فيُصبحُ بعد حِينٍ في عِـداد الأَوفاض[1]، خاليَ الوِفاض[2]، صِفرَ اليَدَينِ[3]، فارغَ الكَفَّين.

والشُحُّ[4] يَسُوقُهُ إلى النَّصب[5] في كَسْب الذَّهب؛ ثمَّ يحولُ دُونَهُ ودُونَ أن يَحْيا حياةَ السُّـعَداء. وما المالُ إلا وسيلةٌ للعيش الرَّغدِ[6]، وسَـبَبٌ لتخفيف الفاقةِ[7] عن الفُقَـراءِ، ومُداواةِ آلامِ البائسين.

كما لا خيرَ في قُوَّةٍ بلا شَجاعة ـ لأَنَّ صاحبها يكونُ جبانًا أو مُتهورًا ـ فلا خيرَ في مال بـلا جُودٍ؛ لأنَّ صاحبهُ يكونُ بخيلًا أو مُسرفًا.

إن كان في الإسراف إتلافُ الأموال، فَفي البُخل بها إرهاقُ النَّفْسِ عُسْرًا[8]. فالوَيلُ في كِلتا الحالتينِ نازلٌ بِمَنْ تَخلَّق بهما.

---

(1) الأوفاض: الفقراء الذيـن لا مال لهم. والأوفاض أيضًـا: الفرق والأخلاط من الناس.
(2) الوفاض: جمع وفضة، وهي خريطة يحمل فيها الراعي أداته وزاده.
(3) صُفر اليدين: فارغهما.
(4) الشح: البخل مع حرص.
(5) النصب: التعب.
(6) الرغد بفتح الراء وسكون الغين وبفتحهما: الواسع الطيب.
(7) الفاقة: الفقر والحاجة.
(8) أرهقه عسرًا: كلفه إياه. والإرهاق: تكليف ما لا يستطاع ولا يطاق.

والاعتدالُ ـ وهو الجُود ـ داعِيةُ السّعادةِ بالمال. قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً[1] إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: 29].

فَلُزُومُ القَصْدِ[2]، واتِباعُ وَسَطِ الأَمر، هُوَ المُنْجِي من الوَيْلات[3]. فَلْيُنفِقِ الإنسانُ على نفسه وعِياله والمحتاجين من النَّاس وعلى المَشروعات النّافعة ما ليس إسرافًا ولا بُخلًا.

وليُعْلَم أَنَّ الجُودَ يُقَدَّرُ بِقَدرِ الثّروة. فَرُبَّ جُودٍ يُعَدُّ بخلا في جانب آخرَ، والعكسُ بالعكس.

وبعدُ، فإنَّ في الأُمَّة قومًا، أصلَحَهُمُ اللهُ، حَسِبُوا البخلَ سَبَبَ الخُلودِ في الدُّنيا. فإن طلبت منهم أن يَقُوموا بِسدِّ عَوَزِ بعضِ الفُقراء، وإعانةَ بعضِ المشروعاتِ الحَيَوِيَّة، ظَنُّوا أَنكَ تَدْعُوهم إلى إشراعِ الرِّماحِ[4]، وتَجريدِ الصِّفاحِ[5]، وبَذلِ الرواحِ، في ساحة الكِفاح[6]. فَمِنهم مَن يَبخَلُ على نفسه؛ فهو من الأَنانِيِّين[7]، الذينَ ضَعُفَ شُعُورُهُم، ومَرِضَ وِجدانُهم؛ فهم يَرَون الحياةَ في موت الأُمَّة، والسَّعادةَ في شَقائها.

---

(1) مغلولة: مشدودة في الغل، وهو القيد، وغل اليد إلى العنق كناية عن البخل.
(2) القصد: التوسط في الأمور.
(3) الويلات: المصائب.
(4) إشراع الرماح: رفعها وتسديدها إلى وجه العدو.
(5) الصفاح: السيوف العراض. والمفرد صفيحة.
(6) الكفاح: الحرب مواجهة.
(7) الأناني: من لا يرى غير نفسه، فهو يقول: أنا أنا.

وُهناكَ قومٌ مُبَذِّرون مُسْرفون؛ إن رأوا مُنْكَرًا أَقبلوا عليه، أو سَمِعُوا بسَــفاهة طارُوا إليها، وبَذَلُوا في تلك الســبيل القَناطير المُقَنْطَرةَ من الذَّهَب والفِضّة. وإن دُعُوا لِلبَذْل في ســبيل الخير عَمُوا وصَمُّوا[1]. وأُولئك هُم شَرُّ الثلاثة، وأُولئك همُ العادُون[2].

فابتَعِد، أَيها النَشءُ الصَّالحُ، عن هؤُلاء وأُولئك. والزم سبيلَ الأَجوادِ الكِرام؛ فهيَ الســبيلُ الواضحةُ، والمَنْهَجُ الأَسَدُّ[3]. فإنَّ الجُودَ هــو الاعتدال؛ وهو مَحَــطُّ الرِّحــال[4]، ومَجْلَى الآمال، ومَيدانُ الرِّجال.

فبهِ تَمسَّكْ. وإلى حَصتِه التَجِىءُ، تَكُنْ أُمَّتُك سعيدةً بك.

* * *

(1) عموا: صاروا عميانًا. صموا: طرشوا.
(2) العادون: الظالمون الذين تجاوزوا الحد في الظلم.
(3) المنهج: الطريق الواضح. والأسد: الأكثر سدادًا أي استقامة.
(4) الرحال: جمع رحل وهو ما يوضــع على الجمل، وفلان محط الرحال: مقصود بالحاجات.



السَّعادة

ما اختلف النَّاسُ في تَفْسير أمر اختلافَهم في تفسير السَّعادة.

ذلك، لأنها من الأشــياء النِّســبيَّة، والأُمورِ الإضافِيَّة. فهي ليســت من الخير المُجْمَعِ عليه؛ وإنما هي خيــرٌ بالإضافة إلى شخص رآها كذلك.

قد يَستحسنُ زَيدٌ أمرًا، فَيَعُدُّهُ ســعادةً ويَحْسَبُ الواصلَ إليه سعيدًا. ويَرَى عَمْرٌو نَفْسَهُ، فَيَعُدُّهُ شقاء، ويَظُنُّ العاكفَ عليه شَقِيًا.

فالسَّعادَةُ ـ كالجَمال ـ قد تَباينت[1] فيها الفُهُومُ، واختلفت في تَفسيرها المُيُول. ومَرجِعُ الأَمر إلى الذَّوق، وتَضارُبُ المَنازعِ إنَّما هو من تَبايُن الأَذواق.

فَمِنَ النَاس من يَرَى السَّعادةَ في التَّبَسُّط[2] في المَأكل والمَشرَبِ واللهو والمَلبَسِ وتَمْضِيةِ الوقت في المَنازِهِ[3] والمَلاهي. ومنهم من

---

(1) تباينت. اختلفت.

(2) التبسط: التوسع.

(3) المنازه: جمع متنزه. وهو المكان الذي تروح فيه النفوس كالجنان ونحوها. وهو جمع بحذف الزوائد، وقول الناس منتزه، بتقديم النون على التاء، خطأ.

يراه في كسْـــبِ المالِ وحَبْســـهِ في الصَّناديق. ومنهم من يَعُدُّها في المُطالعــة والمُدارســة والغَوصِ علــى دُرَر العُلــوم والبَحث عن مكنُونات الآداب. ومنهم من يَحْسَبُ أنها في التَّخلي عن هذا العالمِ الفاني، والزُّهدُ فِيما تَحْويهِ هذه البسِيطةُ من مَتاعها. ومنهم من يراها في التَّسلُّط والأَثرَةِ[1] وتذلِيلِ النَّاسِ، لِيكونوا عَبيدَ أهوائه، وأرقاءَ[2] شَهَواته. ومنهم من يراها في غير ذلك من المَنازع والمَشارب.

والسَّــعيدُ من نَظَرَ بعين العقل، واختَطَّ لنفســهُ خُطَّةً وَسَطا يَسْلُكُه، فالاعتدالُ في الأَمر داعِيةُ السَّعادة فيه.

التَّوسُّــط في المَأكل والمَشــرب سَــببٌ لحِفْظ الصِّحَّة من طوارئ الأَمراض والأَخلاطِ الفاسدة.

والاعتدالُ فــي التَّنزُّه واللهو داعيةُ سُــرُورِ النَّفس ونشــاط الجســم. وفي عَدَمهما انقباضُهــا. وفي الزيادة منهمــا تَعْويدُها الكسَلَ والخُمُولَ والمَيْلَ إلى المَفاسد.

والاقتصادُ في كسْب المالِ وبَذلِه يَهْدِي إلى وُجُوه الخير في مَكْسَبه، وتركِ الشّرَه[3] في جَمْعه من حِلِّهِ وغير حلِّه. ويُرشدُهُ إلى طُرُق الإنفــاق القَويمة؛ فلا يكونُ بخيلًا ولا مُســرفًا. بل يعيشُ عيشة السَّعادةِ والرَّفاه[4].

---

(1) الأثرة: الاستئثار، وهو الاستبداد بالمنفعة.

(2) الأرقاء: العبيد.

(3) الشره: اشتداد الحرص وغلبته.

(4) الرفاه والرفاهية: لين العيش وسعته ورغده.

والقَصْدُ[1] في العُكُوف على الـدَّرس والمُطالعة يَدْعُو إلى تَرْويح النَّفس، ويَطْرُدُ عنها المَلَلَ والسَّآمة.

والأَخذُ بِحظَّيِ الدُّنيا والدِّين، والتَّمسُّـكُ بما يُرَبي الجسمَ ويَنعِّمُـه، ويُهَذِّبُ العقـلَ ويُقَوِّمُه، سَـببٌ لِنَيْل السَّـعادَتين في الحياتين.

وحَمْلُ النَّفس على التَّرفُع عن الصَّغَار[2] والتَّنزُّهِ عن الكِبرياء هوَ الإباء[3] المحمودُ. وهو شَرَفٌ للنَّفسِ عظيم؛ لَأنه يَرْبأُ بالنَّفْس أن تَسـتكينَ للضَّيم[4]، ويَعْصِمُها[5] أن تَعْمِدَ لاحتقار النَّاس، أو تَمِيلَ إلى تَذليلهم، أو تَجْنَحَ للاستئِثار بالمَرافِق[6] والمَنافِع.

وفيما تَقَدَّم من مجموعِ هذه التَّوسُّطات ـ وغيرُها مَقِيسٌ عليها ـ سعادةٌ للمُتخلِّق بها تجعلُ حياتَه في هناءة، وعَيْشَهُ في رَغد[7].

فَمَنْ أراد أن يكون سـعيدًا في نَفْسـه وأَهله ومالـهِ ووَلَده وصَحْبه وكلَ عَمَلٍ من أعماله، فعليه أن يَتطلَّب السَّعادةَ في قَصْد السَّبيل. وليَجعلْ دليلهُ إلى ذلك العقل والوِجدان؛ فَهُما خيرُ دليل.

(1) القصد: التزام التوسط.

(2) الصغار: الذل والضيم.

(3) الإباء: خلق يمنع الإنسان مما يعيبه.

(4) يربأ بالنفس: يرفعها. تستكين: تذل وتخضع. الضيم: القهر والظلم والذل.

(5) يعصمها: يمنعها.

(6) تجنح: تميل. المرافق: المنافـع والمصالح. والمفرد مرفق «بوزن منبر ومجلس ومقعد» وهو ما ارتفقت به اي انتفعت.

(7) الرغد بفتح الغين وتسكينها: السعة.

إنَّ طريقَ السَّــعادة، أيُّها النَّاشِئُ الكريمُ، أمامَك. فاطلُبها في العلم والعمل الصَّالــحِ والأَخلاقِ الفاضلة. وكُــن في كلِّ أمرك وَسَطًا، تكُنْ سعيدًا.

* * *



القيامُ بالواجب

لو قام النَّاس بما وَجَبَ عليهم، لكانُوا - وهُم في الأَرض - في جَنَّة الخُلد.

على المَرء أن يَعرف باديء بَدء ما وَجبَ عليه معرفةً صحيحة؛ ثمَّ عليه أن يقومَ به حَقَّ القيام.

معرفةُ الواجبِ شيءٌ عظيم؛ والقيامُ به أمرٌ أعظم.

إن كان هُناك كثيرٌ من النَّاس لا يعرفُ الواجب، فإنَّ أكثرَهم يعرفُهُ ولا يَرْعَى[1] لهُ عهدًا. ومَلامةُ من يعرفُ الحقَّ فيُحِيدُ عنه، أشدُّ من ملامة من يَحِيدُ عنهُ لأَنَّهُ يَجهَلُه.

عَجِبْتُ من بعض النَّاس: كيفَ يُريدُ من غيره أن يقومَ بما وجبَ عليه نحوَهُ، ثمَّ هُوَ يُهْمِلُ أشدَّ الإهمال ما وجب عليه نحوَ غيره!...

(1) لا يرعى: لا يحفظ.

مَنْشأُ إهمالِ الواجبِ أَحدُ شيئين: الأَثرَةِ[1]، وضَعف الإرادة.

فالأَثَرَة تَدفعُهُ إلى احتقار غيره والاستبدادِ بالمَرافِق[2] دُونَهُ. فيَقْتُلُ بذلك الواجبَ عليه نحوَ الأفرادِ والجماعات من القيام بخِدمْتها، والسَّعي وراءَ مَنافِعها، كما تَخْدمُهُ وتَسْعَى لمَنْفعته.

وضَعْفُ الإرادةِ يَحُولُ[3] بَينَهُ وبينَ أن يقوم بما وجب عليه. فإن خَطَرَ له أن يَعمَلَ حالتْ تَربيتُهُ الفاسدةُ دُون القيامِ بالواجب.

القيامُ بالواجب من المَنافع المُشتَرَكِ فيها، التي يَعُودُ نَفعُها على القائم بها، كما يعود على غيره. لأنك إن عَمِلتَ ما وجب عليك نحوَ امرئٍ من الناس فإنه يَبذلُ جُهدَه لِيُقابلَك بِمثْل عَملِك والقيامِ بما وجب عليه نحوَك. وإن قُمتَ بالواجب نحوَ الأُمَّة، ودَعوتَ غيرَك للقيام به نحوَها، سُعِدَت. وكانت سعادتُها سعادةَ أفرادِها، الذينَ أنت واحدٌ منهم.

قُمْ بالواجب نحوَ والِدَيك، يَقُوما بواجبهما نحوَك. وبذلك تَنالُ ما تَتَمنَّاهُ من السعادة.

(1) الأثرة: الاستبداد بالمنفعة والانفراد بها.
(2) المرافق: النافع.
(3) يحول: يعترض ويمنع.

وقُمْ بالواجب نحوَ أساتذتِك ـ بأن تكون مُتَخلِقًا بالأَخلاق الفاضلة، مُكِبًا على الـدَّرس، باذلا الجُهْد فـي إيفاء الواجباتِ المَدرسيَّة ـ تكُنْ أَحبَّ إليهم من أولادهم.

وقُمْ بالواجب نحوَ أصدقائِك ـ بـأن تكون لهم عونًا في الضَّرَّاء[1]، وأَنِيسًا في السَّـرَّاء[2]، وأن تَموتَ لموتهم، وتَحْيا لحياتهـم، وأن تَأخُذَ بأيديهـم إن عَثَروا[3]، وتُساعِدهَم إن أملَقُـوا[4] ـ يكُونـوا لك أَعوانًا فـي الشَّـدائد، وأعضادًا في النَّوازل[5].

وقُمْ بالواجب نحوَ أهلِكَ ـ بأن تُواسِـيَ فُقَراءَهم[6]، وتَدفَعَ الحاجةَ عن مُحاويجهـم[7] ـ يَفْدُوك بأَرواحهـم، ويَبذُلوا ما عَزَّ وهانَ لرفع شأنِك وإعلاء منْزلتِك.

وقُـم بالواجب نحـو أولادِك ـ بـأن تُرَبِّيهَم تربيَةً حسَـنة، وتُخَلِّقَهم بالأَخلاق التي تجعَلُهم فـي دَرَجات الرِّجال ـ يَقُومُوا بواجبك، ويَرفعُوا من مَقامك، ويكونُوا لك خَدَمًا في شيخوختِك،

(1) الضراء: الشدة.
(2) السراء: الرخاء.
(3) عثروا: سقطوا وزلوا.
(4) أملقوا: افتقروا.
(5) الأعضاد: الأعوان. النوازل: المصائب.
(6) تواسي فقراءهم: تعطف عليهم وتشركهم فيما أنعم الله به عليك.
(7) المحاويج: جموع محتاج.

يومَ لا تَجِد من يَخْدُمُك سِوَى بضاعِك[1] المُهَذَّبِينَ، الذينَ قُمتَ بواجبهم في زمن نشأتِهم.

وقُـم بالواجب نحـوَ زوجِك ـ بـأن تُعامِلَها، كمـا أمَرتَكَ الشَّريعَةُ، بالإيناس والبَشاشـةِ واللِّين، وأن تأتِيَها بِما تَحتاجُ إليه بلا إسـرافٍ ولا تَقْتير[2]، وأن تُهَذِّبَ أخلاقَها، وتُعلِّمَها ما وجبَ عليها ـ تَكُنْ لكَ أَطوع من يَمِينك، وتقُمْ بالواجب عليها نحوك، وتَعِشْ شَريكةً لك في السَّراء والضَّراء.

وقم بالواجب نحو تِجارتِك وصِناعتِك وسائر عَملِك ـ بأن لا تكونَ غاشًا، ولا خادِعًا، ولا مُرَوجًا لفاسد، ولا مُحَبِّذًا لِعَور[3]، ولا مادحًا لِمَعِيب ـ ترَ أَفئدةَ النَّاسِ تَهوي إليك، ويُقْبلِ القومُ على ما لديَك من تَجارةٍ أو صِناعة أو عَمَل. لأن الثِّقَةَ أمرٌ عظيمٌ. ولا يُوجِدُها إلا القيامُ بالواجب.

وعلى الحكومةِ أن تَقومَ بِواجبها نحوَ الشـعب ـ بأن تَحترمَ لُغَتَهُ، وآدابَهُ، وعاداتِـهِ، ومُمَيِّزاتِهِ، وحُقوقَـهُ الأَدبيَّة والقانونيَّة، وسائرَ ما هو حَقٌّ لهُ ـ فإن فَعلَت ذلك اندفعت الأُمَّةُ لِنُصْرتها وشَدِ أَزْرِها[4]، وأقدمت على القيام بما وجب عليها نحوَها.

---

(1) البضاع: الأولاد، والمفرد بضمة بفتح الباء، وقد تكسر وهي في الأصل: القطعة من اللحم، وسُمي الولد بضعة لأنه قطعة من أبويه.

(2) التقتير: التضييق.

(3) العوار بتثليث العين: العيب، والخرق في الثوب، والعيب في السلعة.

(4) شد الأزرة: كناية عن التقوية. والأزر: الظهر والقوة.

وقِيامُ كلٍّ من الحُكُومَة والأُمّةِ بما يَجِبُ عليه نحوَ الآخر، هو السَّعادةُ، التي ما وراءَها سعادةٌ في هذه الحياة.

فعليك، أيُّها النَّاشـئ، بالقيام بالواجب؛ فإنّهُ رُوحُ الوُجُود، وسِرُّ العُمران، ورأسُ الأَخلاق.

أنصِفِ النَّاسَ من نَفْسك، يُنْصِفُوكَ من أنْفُسهم.

وقُم بالواجب عليك نحوَ غيرك، يَقمْ بالواجب عليه نحوَك.

* * *



الثِّقة[1]

لولا الثِّقَةُ لَعاشَ النَّاسُ دَهرَهُم في القَلَق والخوف.

وفَقْدُ الثِّقةِ فِقْدانُ الحياةِ السَّعيدة.

فهيَ رُوحُ الأَعمال، ورَيحانهُ[2] الآمال.

إن ضَعُفَتِ الثِّقَةُ في النُّفُوس كان الإنسانُ نحوَ أخيه الانسان وحشًا ضاريًا[3]؛ يَتَنكَّرُ لرُؤيته، ويَتَحَفَّزُ[4] لِمُقاومته. فلا يأتمِنُه على مال، ولا يَركَنُ إليه في حال.

التِّجارةُ مَدارُ الحرَكةِ الاقتصاديَّة، وهي مَبْنيَّةٌ على تَبادُل الثَّقة. ولولاها لكَسَدَتِ الأَموالُ، ووَقَفَ دُولابُ الأَعمال. فكان من ذلك شقاءُ الحياة، وضِيقُ دائرة الرَّجاء[5]. وأيُّ عاقلٍ يُقْدِمُ على تَسليم أمواله إلى من لا ثِقةَ له به! إنَّ هذا لضَربٌ[6] من الجُنُونِ عَظيم!

(1) الثقة: الائتمان. وثق به يثق: ائتمنه.

(2) الريحانة: واحدة الريحان وهو نبت طيب الرائحة.

(3) ضاريًا: مفترسًا.

(4) يتحفز: يتهيأ لوثوب.

(5) الرجاء: الأمل.

(6) الضرب: النوع، وجمعه ضروب.

وكما أنَّ فَقْدَ الثِّقة في الأمُور المادَيَّةِ داعِيةُ انحلالها وفسادِها، فكذلك هو في الأُمور المعنويَّة.

إذا صادقتَ إنسـانًا فوَجدتَ أَن لا ثِقةَ لكَ بِصداقته ـ لأَنهُ يَبيعُكَ. بأُكلةٍ أو ما هو أحقرُ منهـا؛ أو يأكلُ لحَمَكَ[1] مَعَ من يَراه يأكُلُـه؛ أو لا يدفعُ عنك بِظَهْرِ الغَيْب مـا يُوجَّهُ إليك من السَّـوءِ، بل يجبُنُ عن القيـام بِنُصرتِك؛ أو يَبـذُلُ الجُهْدَ في اسـتنباط الحِيَلِ لِيَخْتلسَ أموالك، أو لِيَطَّلعَ على أسرارك، ثمَّ يُفْشِـيَها بينَ النَّاس ـ فإنَّك لا تُقيمُ علـى صداقته، ولا تَركَنُ لِخُلَّب صُحْبَتِه[2]. وإن بقيـتَ مُحْكِمًا حَبْلَ المَوَدَّةِ فإنك غِرٌّ[3] جَهُولٌ، أو جَبَانٌ ضعيفُ الإرادة.

الغاشُّ في عَمَلِهِ يُميتُ ثِقةَ النَّاسِ به. فلا يُقْبلون على تِجارته، ولا يَحْفِلونَ بصناعته؛ ولا يأبَهُون[4] لِعَمل من أعماله.

المُخادِعُ والمُرائِـي والمُنافِقُ والـكاذبُ والطَّامعُ والخائنُ والأَنانيُّ، كلُّ أولئكَ مَنْفُـورٌ منه، منئِيٌّ عنه[5]. وما ذلك إلا لِفَقْد الثِّقة به من النُّفوس.

---

(1) يأكل لحمك: يغتابك.

(2) صحبة خلب: غرارة لا فائدة منها، كما قالوا: برق خلب للذي لا مطر وراءه.

(3) الغر: من لم يحرب الأمور.

(4) لا يحفلون: لا يعبئون ولا يلتفتون. وما له لا يأبهون.

(5) منئي عنه: مبعود عنه.

فالمُخادعُ يُريدُ بِك المَكروهَ من حيـــثُ لا تَعَلمُ؛ وهو يُظْهِرُ لكَ الحبَّ وإرادةَ الخير. فمتى عَلِمْتَ بَخَتْلهِ[1] ومَكْرِهِ نَفَرْتَ منه لِضَعْفِ الثَّقةِ به.

والمُرائِي يُرِيكَ خِلافَ ما هو عليه، يكونُ فاســقًا ســافلًا، فَيُرِيكَ أَنَّه صالحٌ عَلِيٌّ. ويكونُ دنِيئًا ســاقطَ الهِمَّــة، فَيُريك أنهُ شريفُ النَّفْسِ ناهضُ العزيمة. ويكونُ آكلًا أموالَ النَّاسِ بالباطل؛ فَيُريك أنهُ أمينٌ على ما يُسْتَودعُهُ من مال. ويكونُ ويكون؛ فَيُريك أنهَ على خِلاف ما يكــون. ومتى عَرَفتَ ما هــو مُنطَوٍ عليه من الأَخلاق السَّافلة، لَفَظْتَهُ لَفْظَ النَّواة[2]؛ لأَنَّك لا تَثِقُ به.

والمُنافِقُ كالمُرائِي في أنَّ كلَّ منهما يُبْطِنُ خِلافَ ما يُظْهِر. إلا أنَّ خُلُقَهُ أســفَلُ؛ لأَنَّهُ لا يكونُ قاصرًا على المُنافِق والمُنافَق لهُ. فالمُرائِي يُريك ما يُريك لِتَمِيلَ إليه وتَعْتَقِدَ فيه الاستقامة. والمُنافِقُ يَسْــتُرُ اعتقادَهُ الدِّينيَّ أو الاجتماعيَّ أو السياسيَّ؛ ثمَّ هو يُصرِّحُ لأَصحاب المَذاهبِ المختلفة والمشــاربِ المتباينة[3] أنَّهُ مَعَهُم، وأنَّ عَقِيدتهُ كعقيدتهم. ورُبَّما كان لا يَعتقِدُ عَقيدةَ أحدٍ منهم. وقد يَمِيل إلى مَشْرَبٍ، وهو يعلمُ أنَّ أهلَهُ في الضلال المُبين. فَيُطْرِي[4]

---

(1) الختل: الخداع والمكر.

(2) لفظته: طرحته، والنواة: بزرة التمر ونحوه.

(3) المتباينة: المختلفة.

(4) يطري أصوله: يبالغ في مدحها. والإطراء: المبالغة في المدح، أو الإتيان بأقصى ما عند المادح منه. ويقال: أطرأه بطرئه أيضًا.

أَصُولَهُ وفُروعَهُ، ويجعلُ مُتَّسعيهِ في أعلى عِلّيين[1]. وما ذلكَ إلا لِمنفعةٍ ماديَّة تجعلُهُ مَمْلُوءَ الحَقِيبة[2]. ومتى عُرِفَ أحدٌ بالنِّفاق طَرَحَهُ النَّاسُ أرضًا، لِفِقْدانهم ثِقَتَهُم به.

والكاذبُ، إمَّا أن يَكْذِبَ لخوف مكروه، أو رَجاء محبوب. وفي كِلْتا الحالتينِ يكونُ كذِبُهُ داعيًا لِعَدم الثقةِ بقَوله، وسَبَبًا لاعتقاد الكَذِبِ فيه؛ وإن كان صادقًا.

والطَّامعُ يَسعى أن يَنالَ فوقَ ما يَستحِقُّ، ويجتهدُ لِيَقْطِعَ لنَفْسه حَقَّ غيره. فهو غيرُ مأمونٍ على حقّ، ولا مَركونٍ إليه في أمر. ومن كان كذلك فأنَّى للنَّاسِ أن تَثِقَ به!

وأمَّا الخائنُ فَعَدَمُ الثقَةِ به أمرٌ واضح. وهو فيه آكدُ منه في غيره، وأدعى لِلنُّفْرة منه. لأنَّ الخيانةَ هي مجموعُ الخداعِ والرِّئاء والنِّفاق والكَذِب والطَّمَع. هذه هي الخيانةُ الكُبرَى، وهي المُرادةُ عندَ الإطلاق. وكلُّ واحدٍ من ذلك المجموعِ خيانةٌ، لأنَّ من خادعك أو راءَاك أو نافقَ لك أو كذَبَ عليك أو طَمِع في حَقِّك، فقد خانَك وأراك غيرَ الحق.

والأَنانِيُّ ـ وهو من لا يَرَى غيرَ نَفْسه ـ يَدْعُوهَ غُرورُهُ[3] إلى التَّكلُّم عن نفسه بأشياءَ لا تَنْطَبِقُ على الواقع. وكلُّ ذي غُرورٍ

(1) أعلى عليين: أعلى المراتب، وعليون في الأصل: اسم لأعلى الجنة.

(2) الحقيبة: خريطة يعلقها المسافر في الرحل للزاد وغيره.

(3) الغرور: أن يرى الانسان في نفسه من الفضائل ما ليس فيها.

مَعروفٌ بالمُبالغة والحَيَدانِ عن مَنْهَج[1] الصَّواب إذا قال عن نفسه شـيئًا. فهو لذلك يكونُ غير مَوثُوق به؛ ويكونُ كلامُهُ غيرَ واقع مَوقِعَ القَبُول.

ألا إنَّ مَدارَ الثقةِ علـى أَفرادِ الأُمَّة، فـإن كان مَبْلغُهُم منَ الصِّدق وشَـرفِ النَّفْسِ عظيمًا، كانت الثِّقةُ فيما بينَهم عظيمة. وإن ضَعُفَت تلك الخِلالُ[2] الفاضلـةُ ضَعُفَتِ الثقة، والتَوَى[3] نِظامُ الأَعمـال، وكان مـن وراء ذلك القضاءُ علـى الطُّمَأنينة وسعادةِ الأُمَّة.

الثقـةُ المُتَبادَلـةُ عُـروةٌ تُعَلَّقُ إليهـا الرَّوابـطُ الاجتماعيَّةُ والاقتصاديَّةُ والسياسيَّة. فهي، كما تكونُ بينَ الأفرادِ، تكون بينَ الجماعـات. وكما تكون بيـنَ الجماعـات تكون بيـنَ الأُممِ والدُّوَلِ[4]. وبانحلالها تَنْحلُّ تلك، الرَّوابـط، وتَخْتَلُّ أناظيمُ[5] الاجتماع.

(1) الحيدان: الميل والعدول. المنهج: الطريق الواضح.

(2) الخلال. الخصال. والمفرد خلة، بفتح الخاء.

(3) التوى: عسر وتعوج.

(4) الدول، بكسـر الدال وفتـح الواو: جمـع دولة، بفتح فسـكون. ومعناها السياسـي معروف وأصلها دولة الحرب، وهو أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى. يقال: كانت لنا عليهم الدولة. وأما الدول، بضمٍ ففتح، فهي جمع دولة، بضمٍ فسـكونٍ، ومعناها ما يتداول بين الناس، يكـون لهؤلاء تارةً ولهؤلاء تارةً أخرى.

(5) الأناظيم: جمع نظام.

تَعَوَّدُوا، مَعشرَ الناشئين، صَدْقَ القولِ والعمل، وألزِمُوا أَنفُسَكم الإباءَ[1] وإيفاءَ الوَعد، تَكُنِ الثقةُ بِكم طَوْعَ يَمِينِكم. ومتى نِلتُم ثِقةَ النَّاسِ بكم، كنتم من المُفْلِحين. وإياكم أن تُضْعِفُوها؛ فإنَّكم بالثقةِ تَعِيشون.

* * *

(1) الإباء: الامتناع مما يعيب.



الحَسَد

كِبارُ النُّفُوسِ لا يَحْسُدُون؛ لأنَّ الحَسَد من صِغَر النَّفْس، وضَعْفِ الإرادة، ولُؤْمِ الطَّبع. والعظيمُ الأَبيُّ من بَعُدَتِ المَساوِفُ[1] بينَهُ وبينَ هذه الأخلاقِ الوَضِيعة.

من الكَلِمات السائِرة: «**الحَسُودُ لا يَسُودُ**». وهي كلمةٌ ـ لو تَعْلَمُونَ ـ عظيمةٌ، تتَضَمَّنُ مَعانيَ كبيرة. وهي إن صَغُرَ لَفظُها، فقد كَبُرَ معناها، وشَرُفَ فَحْواها.

الحسُودُ يكونُ ضَيْقَ الخُلُق، مُنْقَبِض الصَّدر، مُضطَربَ الفكر. إن رأَى نِعمةٍ، أو شاهدَ أحدًا نال في الناس مُقامًا رفيعًا هُو أَهلٌ لهُ، وَدَّ لو تُحَوَّلُ تلك النِّعمةُ إليه، ويكونُ ذلك المَقامُ طَوْعَ يَديَه، وإن نال الشقاء من أصحابهما مَنالَهُ.

التَّمَنِّي ـ كما يقولون ـ رأسُ مالِ المُفْلِسِ. وأنّى لَمَنْ خلا من الإرادة وعِزَّةِ النَّفس وكرَمِ الطَّبْع، أن ينالَ المَقامَ المحمود، أو يَصِلَ إلى نِعْمةٍ أنعمها اللهُ على عبده، ولا أنَ يَغْتَصِب مَقامًا

(1) الأبي: الممتنع مما يعيبه. المساوف: جمع مسافة.

لغيره، فَيُوَسَّــد[1] إليه. بل يَبقى ـ كما كان ـ قليلَ النِّعمة، سافلَ المَقام، دَنيءَ النَّفس، وضِيعَ القَدر. وهَل يُمكِنُ من كان كذلك أن يَقْبِضَ على ناصية السُّؤدد[2]، أو يَجُولَ في مَيْدان الشَّرف!؟ لا، ورَبِّ الكَعْبة، فإنهُ بِتلك الأخلاق لا يَسُود، ولو عَكَفَ على حَسَدِه أبدَ الدَّهر.

أمَّا الكبيرُ النَّفس، فهو إن بَصُرَ في غيره بأَمر يُثْنَى عليه به، أو رآهُ في مَنزِلةٍ يُغْبَطُ[3] عليها، فلا يَجُولُ في وهمِهِ أن يَحْسُدَهُ على نِعمته، أو يَحُطَّ من مَنزلته. بل يسعى كلَّ السَّعي لينالَ مِثْلَ مَناله، ويَرْقَى مثلَ رُقيِّه. فإن زاد فيه الإباءُ، فلا يَرضى لنفسه إلا بما فوقَ ذلك المقام، ولا يختارُ لها إلا أرضى من تلك النِّعمة.

وضَاعةُ النَّفس تَدفعُ الإنسانَ إلى أن يَتمنَّى زَوال النِّعمةِ عن غيره لتكونَ لــه. وإباؤُها يَحْفِزُهُ[4] إلى العمل لِيَفُوزَ بالحُسْــنى، ويأبى عليه أن يُريدَ بغيره السُّــوءَ ليكونَ له الخيــر. فالفَرْقُ بينَ الخُلُقينِ عظيم.

وقد عَلِمتَ بما شرحناه معنى قولِهم: «**الحَسُودُ لا يَسُود**»؛ لأنَّ من أخلاق الحســودِ ضَعفَ الإرادة، وصِغَرَ النفس، والجُبْنَ عن

(1) يوسد: يسند.

(2) الناصية: مقدم الرأس. ويُراد بالقبض على ناصية الأمر للتمكن منه. السؤدد: الشرف.

(3) الغبطة: أن تتمنى ان يكون لك من المجد والغنى ونحوهما مثل ما لغيرك مع بقاء نعمته عليه. أما الحسد: فهو تمني زوال النعمة عن المحسود لتكون للحاسد.

(4) يحفزه: يدفعه.

الإقدام على عمل السَّـادة. وأحرِ بِمَنْ كان كذلـك أن لا يكونَ سَيِّدًا. فالسِّيادةُ وهذه الأخلاقُ على طَرَفي نَقِيض.

عجيبٌ والله أن يَتَمنَّى المَرءُ ما لا يكـونُ إلا بِجِدٍّ وعمل ـ وهو كسُولٌ خامل مُهْمِل ـ وأن يَرجُوَ ما لا يَكْسِبُهُ إلا الحسْرَة، ولا يَعُودُ عليه إلا بانقباض الصَّدر. وهذه صِفةُ الحاسـدين. فاحذَرْ، أيُّها الناشِئُ، أن تكون من الجاهلين.

رُبَّما تَبْلُغُ نارُ الحسدِ بالحاسد حَدًّا يَدفعُه إلى إيذاءِ محسوده، والسَّعي في ضَررَه، وبَذْلِ الجُهْدِ لإيصال ضُرُوب الشَّرِّ إليه.

وإنَّما يعملُ ذلكَ ثائرًا لنفسـه الوَضِيعة، ظانًا أنَّ هذا العملَ يُطْفِئُ جمرةَ طبعهِ اللَّئيم.

ومتى بَلغ الحسدُ بالحاسـد هذا المَبْلَغَ كان وحشًا ضاريًا، وأفعَى في أنيابها السُّمُّ ناقعٌ[1]. وكثيرًا ما يَعُودُ الضَرَرُ عليه فيَموتُ بِغَيْظه، ويُحرَق بنار حِقْده.

إلا إنَّ الحسَد كان فيما مَضَى أكبرَ أدوائِنا[2]، التي قَضَت على مجدنا ومَدَنيَّتنا. وأراهُ اليومَ أفتَكَ وَباء فاشٍ في مُجْتَمَعنا. فلا ترى أحدًا يقومُ بما فيه صلاحٌ للبـلاد، منفعةٌ للأُمة، إلا وجدتَ إزاءَهُ من المقاومين الجَمَّ الغَفِير[3]، حَسَدًا من عندِ أنفسِهم، وبَغْيًا على

(1) الأفعى: الحيّة العظيمة. ناقع: مجتمع ثابت، وسم ناقع: بالغ قاتل.

(2) الأدواء: جمع داء.

(3) الجم الغفير. العدد الكثير.

الحق. فإن لم نترُك هذا الطَّبعَ الَّلئيم، فلا رجاءَ للخير، ولا سَبيلَ إلى السَّعادة.

تَجَنَّب، أيُّها النَّاشئُ، الحسـدَ، فإنهُ من خُلُق الأدنياء، وصِفَةِ الجُهَلاء. فإن بَصُرتَ بقائمٍ بالحق فاعضُدْهُ[1]، ويَسِّـرْ له السبيل. وإن رأيتَ نِعمةً أسبغها[2] اللهُ على عبدٍ من عِباده، فاسعَ إلى مِثْلِها بقلبٍ طاهر ووِجدان نَقِيّ؛ فإنَّك تَبْلُغُها بإذن الله.

وإيَّاك أن يَحْمِلَك الحسدُ على مُناوأته[3]؛ فإنَّك لا تَنالُ منهُ ما تُريدُ. بـل رُبَّما وقَعْتَ في حبائلِ[4] حَسَـدِك. وقـد قِيلَ: «**للهِ دَرُّ الحسَدِ ما أعْدَلَهُ! بَدَأ بصاحبه فقَتَلَهُ!**».

* * *

(1) اعضده: أعنه وانصره، يقال: عضده إذا نصره وأعانه. ولا يقال عضده بتشـديد الضاد بهذا المعنى.

(2) أسبغها: أتمها.

(3) المناوأة: المعاداة والمعاكسة.

(4) الحبائل: المصايد. والمفرد حبالة. ويراد بها المكيدة كما هي هنا.



التَّعاون

كُن عَوْنًا لغيـرك، يَكُنْ غيرُك عوناً لـك. وأحببِ الخيرَ لهُ، يُحْبِبِ الخيرَ لك. فالتَّعاوُنُ من الأُمور التي يَتَبادَلُها النَّاسُ. وقَلَّ من لا يُريدُ لك السـعادة. ولا يُقْدِمُ على إعانتِك، إذا عَرَفَ منك أنَّكَ تَوَدُّ له ذلك، وتُسْـرعُ لِمَعُونته إن مَسَّت الحاجة إليها. اللَّهُمَّ إلا إن كان ممَّن فَسَدَت أخلاقُهم، وسَـفُلتْ تَربيتُهم. فكان مِمَّن يُغْضُون[1] عن مُبادلة المُحْسِـن بالإحسـانِ؛ فلا يَمُدُّون إليه يَدَ المساعدة، ولا يَنظُرُون إليه بِنظَر المُرُوءَة[2].

وكثيرًا ما يَدفعُ اللُّؤمُ بهذا الصِّنْفِ من الناس إلى أن يَجْزُوا من الحسَنة السَّيئةَ، ويَستبدِلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير. ومن فعلَ ذلـك كان مِمَّن صَـدَقَ عليه الأثَرُ: «**اتَقِ شَـرَّ من أحسنتَ إليه**».

أقَلُّ مراتبِ التَّعاونِ أن تُعِينَ غيرَك حِرْصًا على أن تُعانَ، متى احتجتَ إلـى المَعُونة. وأكملُ تلك المَراتـبِ أن تَندفعَ في هذا

(1) أغضى عن الأمر وتغاضى عنه: تغافل عنه.
(2) الطرف: العين. والمروءة: النخوة وكمال الرجولية.

الأمر، وأنت غيرُ آمِلٍ منه فائــدة، ولا راجٍ منه عائدة[1]. بل إنَّك تُقْدِمُ لأَنه فَضيلةٌ في نَفْســه، وأثرٌ صالحٌ يَحتذِي الناس مِثالهُ[2]؛ لِتَنْموَ رُوحُ التَّعــاوُن بينَ الأُمَّة، فيكُون مــن وراء نُمُوِّها اجتماعُ القُلوب، وائتلافُ المجموع، واتِّحادُ الأَفكار، وتَقارُبُ المُيُول.

إنَّ من تُحسِنُ إليه، تكونُ قد نَقَشْتَ في قلبه مَحَبَّةً لا تَمْحُوها إلا الإساءَةُ، والكريمُ لا يُسِيءُ بعدَ الإحسان.

وإن أحســنتَ إلى الأُمَّة كلِّها، فقد أقمتَ فــي كل فؤادٍ من أفئدةِ أبنائِها تِمْثالا من المِقَة[3]، ومِحرابًا[4] من المحبَّة، يَبْقَيانِ ما بَقيَتِ الأُمَّة.

أفرادُ الأُمَّــةِ يَحتاجُ كلُّ واحدٍ منهم إلى الآخر. فإن سَــلَكُوا سبيلَ التَّعاوُن، ونَصَرَ القويُّ منهمُ الضَّعيف، وخَفَّف الغنيُّ آلامَ الفقير، وعَلَّمَ العالمُ الجاهل، وأرشدَ المهْتَدِي الضَّالَّ، وأحبَّ كلُّ فردٍ لغيره ما يُحِبُّهُ لنَفْســه، كان من وراء ذلك سعادةُ المجموع، ونُهُوضُ الأمّةِ من عَثْرة التَّخاذُل، وتَنَبُّهُها من فِراش الغَفْلة، وبَعثُها من مَرقَد[5] الخُمول.

(1) العائدة: الفائدة تعود على الإنسان.

(2) يحتذون مثاله: يقتدون به ويصنعون مثله.

(3) المقه: المحبة.

(4) المحراب: القرفة، وصدر المجلس، وصدر البيت، واكرم شيء فيه. ومنه محراب المسجد وهو مقام الإمام فيه.

(5) المرقد: مكان الرقود وهو النوم.

وليس التَّعاوُنُ قاصرًا على الأُمور المادّيَّة فَحَسْبُ[1]؛ بل هو عامٌ شاملٌ للأُمور المعنويَّةِ أيضًا. وهو فيها آكدُ منه في غيرها.

إن رأيتَ حائِرًا في أمره فأَعِنْهُ بثاقب فِكْرِك[2]، وأوضِح له طريقَ رُشدِه.

وإن وجدتَ محزونًا فَخفِّف عنه حُزنَهُ بما تُلقيه عليه من دُرُوسِ التَّسلية، وما تُروِّحُ به الهمَّ عنه من كلِماتِ التَّفريجِ؛ حتى تُسَرِّي عنه ما ألَمَّ[3] به من همٍّ وحَزَن.

وإذا ألفَيتَ[4] حائدًا عن سبيل الهُدَى، سالكًا طريقَ الرَّدَى، تائهًا في مَفاوِزِ[5] العَمَى، فابذُلِ الجُهْدَ لإرشاده بِليّن الكلام والمَوعِظةِ الحسنةِ والمَعروف من القول، حتى تَحمِلَهُ على سُلوك الصِّراط[6] المُستقيم، والتَّجمُّلِ بالخُلُق الكريم.

على هذا دَرَجَ[7] السَّلَفُ الصَّالح، وفي سُنَّةِ[8] التعاوُنِ المادِّيِّ والمعنويِّ قد سَلَكُوا. وما ضَرَّنا وضَرَّ الأُمَمَ قبلَنا إلا إهمالُ هذا

(1) حسب: كاف. يقال: فلان صديق فحسب، أي يكفيني عن غيره. والفاء في فحسب زائدة لتزيين اللفظ.
(2) الفكر الثاقب: الوقاد المشتمل.
(3) سرى عنه الهمّ: فرّجه عنه. ألم به: نزل به.
(4) ألفيت: وجدت.
(5) المفاوز: جمع مفازة، وهي القفر الخالي.
(6) الصراط: الطريق.
(7) درج: مشى.
(8) السُنَّة: الطريق.

الرُّكنِ الاجتماعيِّ الرَّكين[1]. فَقدِ اســتَبْدَلوا به قُلوبًا أصلبَ من الجَلمَد[2]، وأخلاقًا ما لانحطاطِها قَرار. حتى صار أحدُنا للآخر عقربًا لاسعة، وأفعَى لادغة. وما بهذا أُمِرنا، ولا لِمثْل ذلك خُلِقنا.

لم نُخْلَق، أيُّها النَّـشء، إلا لنكونَ مُتعاونيــن على دَفْع ما يُصِيبُنا من الشَقاء، مُتساندين في السَّراء والضَّراء[3]، عامِلينَ على مَحو ما يَنزلُ بالأُمَّة من اللأواء[4].

إنَّ الأُمَّةَ مُحتاجةٌ إلى المَعُونة؛ فَمدُّوا إليها أيْدِيَكم.

هيَ جاهلة؛ فأعِينُوها بالعلم.

هي فاسدة؛ فأعِينُوها بالإصلاح.

هي فقيرة؛ فأعِينُوها بِبَذْل المال، لِتَفتَحَ به المدارس، وتُنْشِئَ المعاملَ والمَصانع.

فإن فَعلتُم ذلك، كنتم أبناءَها البارِّين[5]، ورجالَها العاملين.

فَتَعاوَنُوا على ذلك؛ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَعاونين.

* * *

(1) الركين: القوي.

(2) الجملد: الصخر.

(3) متساندين: متعاونين يسند كل واحد الآخر. السراء: الرخاء. الضراء: الشدة.

(4) الأواء: الشدة يكون منها الضرر.

(5) البار: المحسن.



التَّقريظ[1] والانتقاد

رأيتُ كثيرًا من الناس يَسُـرُّهَم المـدح، وإن كان بالباطل، ويَسُوءُهمُ الانتقاد، وإن تَجَسَّمَ فيه الحقُّ. وما ذلك إلا من غُرُور النَّفسِ وَوَلعِها بالباطل.

المَغْرورُ يُطْرِبُهُ التَّقْريظ، ويُرَنِحُهُ[2] المدح؛ فَكأنَّ الثَّناءَ عليه راحٌ[3]، مَتى خالَطَت جَوْفَهُ ظن أنه مَلَكَ البَسِيطَةَ ومَن عليها. وما يَسْـتَحِقُّ ـ لو أنصَفَهُ مُقَرِّظُهُ ـ غيرَ الصَّفْعِ والقَّصْع[4]. وإن انتقدَ عليه أحدٌ عمَله، وأبانَ له طريقَ الرُّشد فيه، عبَسَ وبَسَرَ[5]، ووَلَّى واستكبر، واستشاط غَضَبًا وزَمْجَرَ[6].

أمَّا العاقلُ الخبير، فلا يَسُـرُّهُ من يَمْدَحُه؛ لأنَّ المُقرِّظَ لا

---

(1) التقريظ: المدح في حياة الممدوح بحق أو باطل.

(2) يرنحه: يجعله يتمايل.

(3) الراح: الخمر.

(4) الصفع: الضرب على القفا بجمع الكف. القصع: الضرب على الرأس ببسط الكف.

(5) بسر: قطب وجهه وتكره.

(6) استشاط: التهب واحترق. زمجر: أكثر الصخب والصياح.

يَذكُرُ إلا حَسَناتِه، ويَطْوي كِشحًا[1] عن ذِكرِ سَيّئاته. والمرءُ أدرى بما لهُ من الحسَناتِ؛ فلا يحتاجُ إلى إثبات. وإنما يُلَذِّذُهُ[2] أن يَرَى من يُقابلُهُ بالانتقاد الصحيح. لأن المنتقِدَ يُظهرُ له عيوبَهُ، ويوضّحُ خطأه، ويَنْشُرُ ما طُويَ من زَلاته[3] فمتى عَلِمَها اجتنَبها، وباعدَ ما بينَهُ وبينها. فَيَطهُرُ بِذلكَ من وَضَرِ[4] العُيُوب، ويَنْقَى من جَرائر[5] السَّيئات، وصَدِيقُكَ من صَدَقَك، لا من صَدَّقَك.

لولا الانتقادُ لظَلَ الناسُ في الغُرُور سادرين[6]، وللآثامِ مُرتكِبين، وعن الحقّ ضالِين، وفي كؤُوس هَوَى النَّفس كارعين. فهو المِنْهاجُ[7] الأقوَمُ، والدَّليلُ الأقوَى. وبهِ تَتَمَحَّصُ[8] الحقائق، وتَظْهَرُ الفضائل، وتَخَفَى الأباطيل، وتَعْشُو[9] عُيُونَ الأضاليل.

وما من أُمَّةٍ طَرَحت عنها رداءَ الجهل، وكَسَرَت عن عُقولها قُيُودَ الوَهم ـ فَتقَدَّمَت في سبيل العُمران، وبَلَغت من المدنيَّة

---

(1) طوى عن الأمر كشحًا: تركه وأهمله.

(2) يلذذه: يجعله يلتذ.

(3) الزلات: السقطات.

(4) الوضر: الوسخ.

(5) الجرائر: الذنوب والمفرد جريرة.

(6) السادر: الذي لا يهتم ولا يبالي ما صنع. وهو أيضًا المتحير.

(7) المنهاج: الطريق الواضح.

(8) تتمحص: تتنقى من الأخلاط.

(9) تعشو العيون: يسوء بصرها.

أقصَى[1] مـــكان ـ إلا كان الانتقاد رائـــد[2] فَلاحِها، ونَســـمةَ[3] نجاحِها. وما من قوم غرَّتهم حلاوةُ التَّقْريظ، وأســـكَرَتهم خَمْرَةُ المديح، وخَدَّرَت هِمَمَهـــم مَرافِينُ[4] الثَّنـــاء، إلا ضَرَبهُمُ الدَّهرُ بضَرَباته، ورَماهم بِنَكَباتِه[5].

والسِّرُّ في ذلك، أنَّ الانتقادَ يَحْفِزُ[6] الهمَّة. فيَبتعدُ المرءُ عما هو فيه من سُوء الحال. ويَدفعُهُ إلى مَيدان العمل، لِيَحْمدَ المآل[7]. فَيَبْذُلُ الجُهْدَ ليكونَ من المُتَقدّمين في صالح الأعمال، التي تُنيلُه السَّعادَتين، وتَنْفَعُهُ وأُمتَهُ في الحياتين.

أمَّا التَّقْريظُ ـ وأقبَحُهُ ما كان فـــي باطل ـ فهوَ يَنْفُخُ في أنفُ الممدوح الغُرُور؛ ويُدخِلُ في يأفوخه[8] شَيطانَ العَظَمَةِ والكِبرياء. فَيظُنُّ في نَفسه أنهُ بَلَغَ من الكمال السَّماء، حتى طال الجَوزاء[9]. فَتَضْعُـــفُ هِمَّتُهُ عن كســـب الفضائل، وتَفتُرُ عَزيمتُـــهُ عن افتراع

---

(1) أقصى: أبعد.
(2) الرائد: الدليل.
(3) النسمة: نفس الروح.
(4) المرافين: جمع مرفين وهو شيء كالبنج، وهي كلمة إفرنجية عُربت حديثًا.
(5) النكبات: المصائب.
(6) يحفز: يدفع ويسوق.
(7) المآل: العاقبة والمرجع والمصير.
(8) اليافوخ: الموضع الذي يتحرك من الرأس عندما يكون الإنســـان طفلاً وهو ما تسميه العامة «النافوخ» بالنون.
(9) الجوزاء: برج في السماء.

العظائم[1]. فلا تَنْمو مَعارفُهُ ومَواهِبُهُ[2]، إن كانت له عُلومٌ وشمائِلُ[3]؛ ويَظَلُّ جاهلاً مرذولاً، إن كان خاليًا من العلم والفضيلة.

وإنَّ هُناكَ قومًا لا يعملون، إلا إذا عَلِمُوا أنَّ النَّاسَ يمدحون أعمالهم، ويُقَرِّظونَ إقدامَهُم. ونَرَى قومًا يَزيدُهُم التقريظُ هِمَّة إلى همَّتهم، ونفاذًا في الأمر على نَفاذِهم فيه؛ فلا بأسَ بِتَقْريظ عَملِهم، والثَّناء عليهم، لِيَزْدادُوا إقدامًا معَ إقدامهم.

ونحنُ لم نَذُمَّ التَّقْريظَ مُطْلَقًا، بل ذَمَمْنا من يُريدُ من غيره أن يُقَرِّظَهُ بِحقّ أو باطل، ويَسُوءه منه أن يَنتقد عليه عملَهُ إن فعل ما لا يُسْكَتُ عنه. ومن كان كذلك فهو من الذين يُحِبُّونَ أن يُحْمَدوا بما لم يفعلوا. وأولئك هم في مَجْهَلٍ[4] من سَفالة الأخلاق، يَهْلِكُ فيه المَغْرورونَ. فمن سَرَّهُ التَّقريظ فلا يَسُوءُهُ الانتقاد. فالتقريظُ إن كان داعيًا للإقدام على العمل الطيّب، فالانتقادُ يربأُ بالإنسان أن يرِدَ مَواردَ الخطل[5]، أو يَسْقُطَ في مزالِقِ الزَّلَل[6].

---

(1) افتراع العظائم: الغلبة عليها.

(2) المواهب: المطايا. والمراد بها هنا الصفات الغريزية لأنها هبة من الله للإنسان.

(3) الشمائل: الأخلاق، والمفرد شمال بكسر الشين.

(4) المجهل: الأرض التي لا يهتدى فيها.

(5) يربأ: يرفع وينهض. الخطل: المنطق الفاسد.

(6) المزالق: الأماكن التي تزلق فيها الأرجل. الزلل: الخطأ و الانحراف عن الصواب.

وما الأمرُ بالمَعروف والنَّهْيُ عـن المُنْكَر، إلا ضَرْبٌ[1] من ضـرُوب الانتقـاد. ولولاهُما لَظَلَّ الجاهل الفاسـدُ سـادرًا في غُلوائه[2]، ناشرًا للفُسوق عن الحق[3] كبيرَ لِوائه.

وبعدُ، فإنَّ فِئةً من الناس قدِ اتَّخذتِ الانتقادَ ذرِعةً لِلَّنيلِ من الخَلْق[4]، وحُجَّةً للوَقيعة[5] في أعراضهم. فَرشُوا[6] سِهامَ السِّباب والفُحْشِ من القول، ورَمَوا بها من أرادوا أن يَنتقدوه. فتراهم لا يَترُكونَ شـاردةً من السَّـفاهة والبَذاء[7] والمُنْكَر من الكلام إلا وَجَّهُوها إليه. وما هذا بالانتقاد؛ وإنما هو التَّشَـفِّي والتَّقريع[8]. وذلك لُؤْمٌ وخِسَّةُ طَبْعٍ يَتجافَى[9] عنهما أُولُو المُروْة.

إنَّ الغايةَ من الانتقـاد صَرْفُ المُنْتَقَدِ عليـه عمَّا هو فيه من جهل أو خَطَأ. فالتَّسَرُّعُ في الانتقاد وعَدَمُ الرِّفقِ فيه داعيان لِتَعَصُّبه لِمَا هو فيه، وإن وَضَحَ لهُ الأمـرُ أيمَّا وضوح. وقد وَرَد: «**من أمَرَ**

---

(1) الضرب: النوع.

(2) السـادر: الذي لا يهتم ولا يبالي بمـا صنع، والذاهب عن الشـيء ترفعًا عنه. الغلواء: الغلو، وأول الشـباب. والسـادر في غلوائه هو الذي يمشي كما تأمره النفس الأمّارة بالسوءِ غير مهتم بالعواقب.

(3) الفسوق عن الحق: الخروج عنه والعدول عنه.

(4) ذريعة: وسيلة وواسطة. نال منه نيلاً: سبّه وشتمه.

(5) الوقيعة: السب والشتم. وقع فيه: سبّه وعابه.

(6) ريش السهام: كناية عن التهيؤ للرمي.

(7) البذاء: التكلم بفحش القول.

(8) التشفي: الانتقام. التقريع: التعنيف والإغلاظ.

(9) يتجافى: يترفع ويتنحى.

بمعروفٍ فَلْيَكُنْ أمرُهُ بمعروف». فالنّقدُ يَجِبُ أن يكونَ بالتي هي أحسَنُ؛ ليكونَ من ورائه نجاحُ القَصْد وفَلاحُ السّعي: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:34][1]. وما يُلقّاها إلا الذين صَبَرُوا؛ وما يُلقّاها إلا ذُو حَظٍ عظيم».

لا تَغُرَّنَّكُم، معشرَ النّاشئين، أقوالُ المُحَبّذْينَ[2]، ولا كلماتُ المَقرِظين: فَكَثيرًا ما يَقُولون غيرَ الحقّ، طَمَعًا في اكتساب قُلوبِ المُقَرّظين، أو في دُرَيْهماتٍ تَسقُطُ من أيديهم عليهم.

وإياكم أن تَسلُكُوا هذا الطريق؛ فهوَ يُؤدِّي إلى الكذِب.

وما أقبحَ ذنبَ الكاذبين! وتمَسّـكوا بأذيال مَنْ يَنْتَقِدُ عليكم أعمالكُم، ويُبَيّنُ خطأكم، تُرشَدُوا إلى أقوم سبيل.

وإن رأيتُم من غيركم ما يُنْتَقَدُ، فَسَدِّدوا[3] خُطُواتِه، وانصَحُوا لهُ بالإقلاع عن زَلاته[4]، بالكَلِمِ الطّيبِ والمَعرُوف من القول.

وإيّاكم أن تَسْتَعمِلوا خُشُونةَ الكلام؛ فإنّها أوَخزُ من السّهام[5]، وأشدُّ من وَقْع الحُسام[6] وهي مُضَيّعةٌ للفائدة، مُنَفِّرةٌ للقلوب.

---

(1) الولي: الناصر، والصديق، والمحب. الحميم: الصديق كل الصديق.

(2) المحبذ: من يقول لك: حبذا ما تفعل، يمدح عملك.

(3) سددوا خطواته: أرشدوه إلى السداد والاستقامة.

(4) الإقلاع: الابتعاد والترك. الزلات: الخطيئات.

(5) أوخز: أشد وخزًا. والوخز: الطعن بالرمح والإبرة ونحوهما. السهام: النبال.

(6) وقع الحسام: شدة ضربته. والحسام. السيف القاطع.

بل كونوا من أَهل اللينِ والرِّفق، تَنالُوا ما تُريدُون. وقد قيلَ: «**الماء معَ رَقَّتِه، يَقطَعُ الحَجَر مَع شِـدَّته**». وقد خاطبَ اللهُ نَبيَّيْهِ ـ هرُون ومُوسى ـ في شأن فِرَعونَ بقوله: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ[1] ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ[2]﴾ [طه: 43 ـ 44].

* * *

(1) طغى: جاوز الحد.

(2) يخشى: يخاف.



التَّعصب[1]

تَعَصَّبْ لِجنْسِك ولُغَتك ودينك ومَذَهَبِك الاجتماعيِّ ونِحْلَتِكَ[2] السِّياسيَّة، ولا يَسُؤْكَ من غيرك هذا التَّعَصُّبُ. بل دَعْ كلَّ إنسانٍ ومُعْتَقَدَه؛ فلسْتَ على أحدٍ بمُسَيْطِر[3]. وكلُّ امريءٍ حُرٌّ في أن يَدينَ بما يشاءُ، وأن يَتعَصَّبَ لِمَا يُريد.

بِهذا قَضَتِ الأديانُ، وحَكَمَتِ المَذاهِبُ الاجتماعيَّةُ الصحيحة. وفي هذهِ السَّبيلِ سارَ المُتَمَدنون من الأُممِ، كما سارَ آباؤُكَ، أيُّها النَّاشِئُ، قبل.

التَّعَصُّبُ شيءٌ جميلٌ، ومَذهبٌ قَويم، وسُنَّةٌ[4] واضحة، ومَنْهَجٌ سَديد[5]. فهو الذي يَحْفَظُ على الأُمَّة لُغَتَها وجِنْسيَّتَها

---

(1) التَّعصب: التشدد، تعصب في دينه ولغته: كان شديدًا غيورًا مدافعًا عنهما. وتعصب لفلان، ومع فلان: مال إليه وانتصر له، وتعصب عليه: قاومه ومال عليه.

(2) النحلة: المذهب والعقيدة.

(3) المسيطر: الرقيب الحافظ، والمتسلط على الشيء ليشرف عليه ويتعهد أحواله ويكتب عمله. فكأنه مأخوذ من سطر يسطر سطرًا بمعنى كتب.

(4) السُّنَّة: الطريقة.

(5) المنهج: الطريق الواضح. السديد: القويم.

وأخلاقَها الفاضلة وعاداتِها الطَّيّبة؛ ويَحْمِلُها على أن تكونَ شديدةَ البأس[1]، قَوّيةَ السَّاعد، مَنِيعةَ الجانب. ومتى فَقَّدَتْ هذا الخُلُقَ ـ خُلُقَ التّعصبِ الكريمَ، بما طرأ عليها من فساد التربية ـ أضاعت مُميّزاتِها، وخَسِرَت قُوّتَها وبأسَها؛ فكانتَ معَ الهالكين، والذّاهبين الأوّلين. وما هَلاكُها إلا موتُ الشُّعُور، وفسادُ الأخلاق، وذَهابُ المُمَيّزات. وإنّما الأُمَم الأَخلاق.

* * *

تَعَصُّبُكَ لِدينكَ يَدعو غيرَك أن يَحترمَك؛ وعَدَمُ الاكتراث له يحمِلُهُ على أن لا يَعْبأ بك[2].

ومعنى التّعصب للدِّيــن القيامُ بِفُرُوضه، وانتهاجُ سُــنتِهِ[3]، واتّباعُ أوامره، واجتنابُ نَواهِيه، والتّخلُّقُ بالأخلاق الجميلة، التي يَحفِزُ[4] التديُّنُ الهِمَمَ إليها.

وليس معناه أن تَكرَهَ غَيرَك، ممّن ليس على دينك، وتَنْصِبَ الحبائلَ[5] للضّرَر به، وتَبْذُلَ الجُهْدَ لِتُلحِق به الأذَى والمكروه فإن هذا ليس من التعصُّب في شيء. وإنّما هو تَعَصُّبٌ للوَحشيَّة على المدنيَّة، وضَــرْبٌ من ضُرُوب الهَمَجيّة؛ لأنَّ كُــرْهَ المُخالِفِ في

(1) البأس: القوة والشدة.

(2) اكترث له وعبأ به: اهتم به وبالاه.

(3) انتهاج: سلوك. والسُنن: جمع سُنّة وهي الطريق. والسُنَّة في الدين ما كانت دون الفرض.

(4) يحفز: يدفع ويسوق.

(5) الحبائل: المكايد: وأصل معناها: المصايد.

الدِّين، وإلحـاقَ الأذَى به، عَمَـلُ من لم يَعرف مـن الدِّين إلا الانتسابَ إليه فالدّينُ وهذا العملُ على طَرَفَي نقِيض[1].

أمَّا ما يَفعلُهُ بعض مـن لا خَلاقَ[2] لهم، ممَّن لَبسُـوا الدين مَقلوبًا، فهؤُلاء ليْسوا في العِير و لا في النَّفير[3]. وما هُم بِحُجَّةٍ على الدِّين بل للهِ الحُجَّةُ البالغة[4]. وليس في دين الله شيءٌ مِمَّا يَزعُمُون.

إنَّ من يدَّعُـون التعَصُّبَ للدِّيـن، أكثرُهُـم لا يَعْقِلون. ولا يعرفون منه إلا أن آباءهم كانوا به يَدِينُـون. فهم في ظاهر الأمر مُتَدَيِّنون. وما هُم في الحقيقة إلا مُقلِّدُون، يَلْوكونَ من الكلام ما لا يَفْهَمُون، ويَنْتَسِبُون إلى ما لا يَفْقهُون[5]، ويُبْغِضُون من لا يَدِينُ بدِينهم ويَكْرَهُـون؛ مُعْتَقِدينَ أنَّهم بِمِثلِ هـذا ينْجُون، وإلى الله يَتقرَّبُون. ألا ساءَ ما يَزِرُون[6]، وقبُحَ ما يفعلون.

وهُناك طائفةٌ، ليست من العامَّة الجاهلة، ولا الخاصَّة الراقية، تزْعُمُ التَّعَصُّب للدِّين؛ وهي لا تَقُومُ بشَعائِره[7]، ولا تَتمَسَّكُ بِسُنَنهِ وفَرائضِه، وتَدْعُوا النَّاسَ باسـمه. وربما كانت جَعْبةُ[8] عَقِيدتِها

(1) على طرفي نقيض: أي هما متخالفان.

(2) الخلاق: النصيب الوافر من الخير.

(3) ليسوا في العير ولا في النفير: أي ليسوا ممن يعبأ بهم.

(4) الحجة البالغة: الدليل. الذي يحمل على الخضوع.

(5) يفقهون: يعلمون ويفهمون.

(6) يزرون. يحملون. والمراد ما يحملون من أثقـال هذه الأعمال المخالفة للدين، والماضي وزر، والوزر بالكسر: الحمل الثقيل، والذنب.

(7) شعائر الدين: أعماله التي تقرب إلى الله والمفرد شعيرة. والشعيرة أيضًا: العلامة.

(8) جعبة عقيدتها: وعاؤها. والجعبة في الأصل: وعاء السهام.

أفرغُ من جَوفِ الطَّبْـلِ. وما التعَصُّبِ للدّين ـ كما أسلَفْنا ـ إلا التخلُّقُ بأخلاقه، والقيامُ بما يأمرُ به، والبُعدُ عمَّا ينْهى عنه. فَهُمْ يَغُرونَ العامَّة، ليُغَرِّرُوا بِعُقُولها[1]. وهذه الطائفيةُ أيضًا ليست حُجّةً على الدّين؛ لأنها تُدْعُو باسـمه رجاءَ المنفعـةِ الخاصَّة، وتَنفُرُ السُّذَّجَ، مِمَّن لا يَدينُ بِدينِهم، بُغْيةَ السَّيطرةِ على عُقولهم، وأملا بالسُّلطةِ على أرواحهم. واللهُ بَريءٌ منها ومن أعمالها.

* * *

وتَعَصُّبُكَ لجنسـكَ ولُغَتِك، يَجْعَلُكَ مَرْهُوب[2] البَأسِ عندَ غيرِك، رفيعَ المنزلةِ لَدَيْه. واحتقارُك إيَّاهُما يَدعُكَ مَسْخُورًا[3] بكَ عندَ مـن لا تَجْمَعُك وإيَّاه لُغَة، ولا تَضُمُّكُما جِنسـيَّة. وهذا أمرٌ واضحٌ لا يَحتاجُ إلى بُرهان.

وكما أنَّ تفسيرَ التعَصُّبِ للدِّين على غير وجهه أمرٌ مَذمومٌ ـ كما عَلِمْت ـ فكذلك تِفْسيرُهُ، في مَقام الجنسيَّةِ واللغة، باحتقار لُغاتِ النَّاس وجنسـيَّاتِهِم، وإلحاقِ الأذى والمكروهِ بهم، أمرٌ لا يَتفِقُ مَع التَّعْصُّـبِ المحمود، ولا يَجريَ مـعَ الحق في مَيدان. فعليكَ، أيُّها النَّاشيءُ، أن تَحترم لُغَةَ غيرك وقَومِيَّته؛ كما تُحِبُّ منه أن يحترم منك ذلك.

* * *

(1) غرر به: عرضه للمهلكة.
(2) مرهوب: مخوف.
(3) مسخورًا بك: مستهزأ بك.

وتَعَصُّبُكَ لِمَا تَراهُ حَقًا ـ من المذاهب السِّياسيَّة والاجتماعيَّة ـ ومُناضَلتُك[1] عنه، أمرٌ يَدعُوك إليه الواجب، ويَطْلُبُه منك الوجدان. فَناضِلَ عن ذلك بالبُرْهان السَّاطع[2]، والدَّليلِ القاطع، والحُجَّة القامعة[3]، والمجادلةِ النافعة. واربأ[4] بنَفْسك أن تَردَ مَوارِدَ الشَّطَط[5] في القول، وأن تَلِجَ[6] ـ لِلتوَصُّل إلى بُغيَتِك ـ أبوابَ الفُحش والبَذاء[7]. فإنَّ لغيرك رأيًا يَجِبُ أن يُحترَم، ومَذهبًا يُحِبُّ تَعزيزَه[8]؛ كما تُحبُّ تَعزيزَ رأيك واحترامَ مَذْهَبك. فإنِ استطعت أن تَرجِعَهُ[9] عَن مذهبه إلى مذهبك بالحُجَّةِ البالغة، والبرهان الدَّامغِ[10] واللّيّنِ من القول، فافعَل. وإلا فَدَعْهُ وشأنهُ، فَلستَ عليه بمُسَيْطر.

واحذَر أن تَتَّخِذ تَعَصُّبَك ذَرِيعَةً[11] للانتقام؛ فليس هذا من

---

(1) المناضلة: المدافعة والمحاماة.

(2) البرهان: الدليل والحجة. والساطع: اللامع. وأصل معنى السطوع: الارتفاع والانتشار.

(3) القامعة: القاهرة المذللة.

(4) أربأ بنفسك: ارفعها ونزهها.

(5) الشطط: مجاوزة الحد.

(6) تلج: تدخل.

(7) الفحش والبذاء: قبيح القول.

(8) تعزيره: تقويته وتشديده.

(9) رجعه يرجعه ـ بوزن ضربه يضربه. وقد يقال. أرجعه.

(10) الدامغ: القاهر الذي يبطل حجة الخصم. وأصله من الدمغ وهو شج الرأس حتى تبلغ الشجة الدماغ.

(11) ذريعة: وسيلة.

شأن الكرام. ولا تَدَعِ الاختلافَ في الرأي، والتفَرُّقَ في الدِّين أو الجنس أو اللُّغَة، يَنْهَشانِ جِسمَ الاجتماع، ويَفْرِيانِ إهابَ المدنيَّة[1]، ويُمَزِقان شَمْلَ الإنسانيَّة؛ خُصُوصًا إذا كان الاختلافُ معَ أبناء الأُمَّةِ الواحدة، والوطنِ السِّياسيِّ الواحد.

فإلى التعَصُّب الحميد، أيُّها النَّاشِئ، أدعُوك؛ فإنَّه رسولُ السَّعادة، وبَريدُ[2] التَّرَقي.

فَتعَصَّب لِمَا تعتقدُ أنهُ الحقُّ، وتَمَسَّك بِدينك وقَوميَّتك ولُغَتِك ـ على الوجهِ الذي شَرحْتُهُ لك ـ تَكُنْ من المُفْلِحين.

* * *

(1) يفريان: يشقان ويقطعان. والإهاب: الجلد.

(2) البريد: الرسول.



وُرَثاء الأرض

مَنْ أصلَح أمـرًا كان صالحًا لأن يُهَيْمِـن[1] عليه؛ وإن لم يُوَرِّثُهُ إياه آباؤُهُ وأجدادُه. ومن أفسَـدَهُ أفلتَ من يِدِهِ وصار إلى غيره؛ وإن كان بِيدِهِ صُكُوكٌ[2] تُثبتُ وِراثَتَهُ إيَّاهُ، وشُـهودٌ عَدلٌ يُقِرُّونَ أنهُ مُلكُهُ.

كلُّ ما فـي الوُجُودِ مُلكٌ للهِ يُصَرِّفُهُ كيفَ يشـاء، ويَصْرِفُهُ عمَّن شاءَ إلى ما شاءَ. وقد عَلَّقَ اللهُ سُبحانَهُ مَشِيئَتَهُ على وجُودِ أسـبابِ تَدعُو إلى ذلك. فَمَنَ سَعَى لهذه الأَسـباب سَعْيَها، ودخلَ البُيُوت من أبوابهـا، كانَ أحقَّ بوِراثـةِ الأمرِ مِمَّن لا يَصلُحُ لهُ.

---

(1) يهيمن: يراقب ويحافظ. والمهيمن: الحافظ الرقيب. وهو من أسـماء الله أيضًا، لأنه قائم حفيظ على خلقه وأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم.

(2) الصكوك: جمع صك وهو الكتاب، وكتاب الإقرار بالمال أو غيره. ومن الغريب أن الإفرنج أخذوا هذه الكلمة من لغتنا إلى لغتهم مصحفة فقالوا «شك». ونحن اليوم أخذناها عنهم بتصحيفها واسـتعملناها في مصالحنـا التجارية وغيرها. وحبذا لو نرجع إلى تراث آبائنا في الأقوال والأفعال.

الأُمَمُ، على هذهِ البَسِيطة، خَدَمَةٌ للهِ فيها، وأجراءُ يعمَلُون لِعُمْرانها. فمن كان صالحًا لهذه الخِدمةِ أفسَحَ له في الولاية عليها؛ ومن أساءَ انتزعَها منه قَسْرًا[1].

إذا استخدمتَ أحدًا لِيَعمَلَ لك شيئًا، فإنَّكَ تُراقبُهُ مُراقَبةً تامَّة. فإن رأيتَهُ قد أحسنَ الخِدمةَ أبقَيْتَهُ على عَمَله، وإن زادَ في الإنسان زدِتهُ في الأجر. وإن بَصُرْتَ به أساءَ وشَوَّهَ ما تُريدُ تحسينَهُ، أنذرتَهُ باديءَ ذِي بدءٍ؛ حتى إذا لم يَبْقَ لك أملٌ في تجويده العَمَل، انتزَعتَ ما كان بيَدِهِ من عمَلك، وطَرَدْتَهُ من خدمتك. وتكونُ قد أحسنتَ فيما فعلتَ كلَّ الإحسانِ. وإن تَغافَلتَ عن إساءَته، أو لم تُدرِكْ فسادَ صُنْعه، كانت عاقبةُ أمرِكَ الخُسران، ونِهايةُ مصلحتكَ الخراب. ولا يَرضى بذلك إلا من سَفِهَ نَفْسَه.

الإنسانُ خَليفةُ اللهِ في الأرض؛ وإليه وَكَلَ[2] أمرَ عُمْرانِها وتَجْويدِها.

فإن أحسَنَ السَّيْرَ في مَناكِبِها[3] ـ فدَبَّرَ شُؤُونها، وعَمَرَ أقطارَها، واستخرجَ خيراتِها، وأثارَ كامِنَ[4] ثَرْوتِها، وسارَ في مَناهِجِ[5] العَدْل فيها، ونَشَر العلمَ الصَّحيحَ بينَ سُكَّانِها، ولم يَحِدْ

(1) قسرًا: قهرًا.
(2) وكل: سلم.
(3) مناكب الأرض: نواحيها وجوانبها وطرقها.
(4) أثار: استخرج وأظهر. وأصل معنى الإثارة: التهييج والتحريك. الكامن: المختبئ.
(5) المناهج: جمع منهج وهو الطريق الواضح.

عن العمل بالأناظيم[1] التي سَـنَّها الخالقُ سُبْحانَهُ ـ كان خَليفَتَهُ فيها حقًّا، وظَلَّ بِيدِهِ زِمامُ أعمالِها.

وإن أساءَ السِّيرَة، ولم يُحْسِنِ القيامَ على ما استُودع، حَلَّ به ما حلَّ بغيره؛ فصارَ ذليلا بعدَ العِزّ، وَضيعًا بعدَ الرِّفعة، محكومًا بعدَ أن كان حاكمًا، فَقيرًا بعدَ أن كان غنيًّا؛ وأوْرَثَ اللهُ ما كان بِيَدِهِ غيرَهُ، ونَزَعَ عنه لباسَ الإمارة، وألبَسَهُ من اختارهُ لها. وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾ [الأنبياء: 105][2]. من بعدِ الذِّكرِ أنَّ الأرضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُون». والمُرادُ بالصَّالحين في هذا المقامِ مَن كانوا صالحين لعِمارتها، وتجويدِ أعمالِها، وتحسينِ حال سُكَّانها: بِنَشرِ العلم، وبَسْط لِواء العَدْلِ، والاحتياطِ لِدَفْعِ العَدُوّ، والأخذِ بِيدِ الأعمالِ النَّافعة، كالزِّراعة والصِّناعة والتِّجارة. وليس المُرادُ بهم من يُطيلونَ الرُّكوعَ والسُّجُود، وهُم عن اتخاذِ الأسبابِ لِوراثة الأرضِ هُجُودٌ[3]. فهذا أمرٌ روحيٌّ مَحْضٌ[4]، تَعُودُ مَنفعتُهُ في الآخرة على القائم به وَحده. وذلك أمرٌ ماديٌّ لا يكونُ إلا بالوَسائل التي هَدَى اللهُ إليها، والأسباب التي من رَعاها[5] حقَّ رِعايتِها كانَ بيَدِهِ زِمامُ الأمر والنَّهْي.

---

(1) الأناظيم: جمع نظام.

(2) الزّبور: الكتاب المنزل على نبي الله داود عليه السلام. والزبور في اللغة: الكتاب.

(3) هجود: نائمون. والمفرد هاجد.

(4) المحض: الخالص الذي لم يخالطه غيره.

(5) رعاها: حفظها وتعهدها.

أيُّها النَّاشِئونَ، إنَّ أُمَّتَكُم قد عَراها[1] فسادٌ في أخلاقها صَرَفَها عن العمل النَّافع، وصَدَفها[2] عن الأسباب التي تجعلُها صالحةً لِعُمرانِ الأرضِ ووِراثتِها. فحلَّ الشَّقاء، ونَزَلَ بها البَلاء، وأناخت فيها الَّلأواء[3]، واستحكمَ فيها الدَّاء. وأنتُم مَورِدُ سعادتِها، ومَنْهَلُ[4] رَجائها، ومُخفِّفُو شِدَّتِها، وأطِبَّاء أدوائِها[5]. فأصلِحُوا من أمرها، وسَدِّدُوا خُطُواتِها[6]، وسَيِّرُوها في مَناهِج العملِ الصالح؛ حتى تكونَ للأرض وارثةً، ولِعُمرانِها خادمة؛ فَتعُودَ إلى سيرتها الأولى، وتَرجِعَ في حافِرةَ مَجْدِها[7] السَّابق. فقد كفاها ما نَقَّصَهُ العَدُوُّ من بلادها، وما أصابَها من ضَعف أخلاقِها ومُمّيزاتِها ومُقَوِّماتِها.

أنتم أنتم، أيُّها النَّابِتون، نِبراسُ[8] الأمَل، ونَجْمُ الهُدَى، وهَدَفُ[9] العُلا، وغَرَضُ المُنى. فأحسِنُوا لأُمَتِكم، وابذُلوا كلَّ هِمَّتكم، وأوقدُوا نارَ عَزيمتكم، تَكُنْ لكم أُمَّةٌ صالحةٌ، تَحْيَون بها حياةً طيِّبةً، وتَحْيا بكم ناهضةً عظيمةً راقية.

---

(1) عراها: أصابها.
(2) صدفها: صرفها.
(3) أناخت: نزلت وحلّت. اللأواء. الشدة.
(4) المنهل: المورد.
(5) الأدواء: جمع داء.
(6) سددوا خطواتها: ارشدوها طريق السداد والصواب.
(7) رجع فلان في حافرته: عاد في الطريق التي جاء فيها.
(8) النبراس: المصباح.
(9) الهدف: الغرض الذي ينصب ليرمى إليه.



الحادث الأول

تَنَبَّهْ لِلحادثِ الأَوَّل؛ فإنَّ فيه الصُّعُود أو الهُبُوط، والتَّقَدُّم أو التَّأَخُر، والموتَ أو الحياة.

رأينا كثيرًا لا يأبَهُونَ[1] لأَوَّلِ طارئ ولا يُبالونَهُ؛ كأنَّما هو أمرٌ غيرُ ذي بال[2]. ولو عَلِموا أنَّ عواقبَ الأُمُور تَلْحَقُ أوائلَها، وتَسيرُ سِيرتَها، لَتنبَّهوا للحادث الأوَّل، وبَذَلوا كلَّ جُهْدٍ لدفعه، وتلَقَّوهُ كما تَتَلقَّى الجبالُ الرَّاسياتُ طَوارئَ النَّكَبات[3].

النَّتائجُ تَتْبَعُ المُقَدِّماتِ فسادًا وصَلاحًا، فإذا صَلَحَت المُقَدِّماتُ صَلَحَتِ النَّتائجُ؛ وإن فَسَدَتْ فَسَدَت.

يَقُومُ بعضُ النَّاس بعَمَلٍ، ويَسْعَى إليه كلَّ السَّعي. وبَينا هو قائمٌ به يَطرأُ عليه طارئٌ حقيرٌ أو عظيم، فَيَجْبُنُ عن إتمام ما

---

(1) لا يأبهون: لا يلتفتون ولا يعبئون.

(2) أمر غير ذي بال: لا يفتكر به.

(3) الطوارئ: الحوادث. النكبات: المصائب.

قَصَدَ إليه ويَتثَبَّطُ[1] عنه، وتَضْعُفُ عَزيمتُهُ قبلَ بُلوغِ المُراد وما ذلك إلا من فَقْد الصَّبر وجُبن النَّفْسِ، وإنَّما الصَّبرُ عندَ الصَّدمةِ الأولى.

ويَنْهَضُ غيرُهُ إلى أمر؛ فَتَنْصبُّ عليه الطَّوارئُ، وتُحِيطُ به العوائق، وتنْهَدُ إليه المُثبَطات[2] من كلِّ جانب؛ فَيَتحَمَّلُها رابطَ الجأش، ثابتَ العزيمة، إلى أن يتغَلَّب عليها. ثمَّ يَسيرُ نحوَ ما قَصَدَ لهُ بِهمَّةٍ لا تَعرفُ المَلَـل ولا الكَلَل، حتى ينالَ ما يُريد. وما ذلك إلا لأنـهُ صَبَرَ على الحـادث الأوَّل؛ وتَنَبَّـهَ لِبادئ الطوارئ، ودَفَعَ عنه هاجِسَ الجُبْنِ والجزَع[3]، بسَبَب ما أوتِيَهُ من شـجاعة القلب، ومـا تَرَبّـى عليه من الصبـر عند أولى الصَّدَمات.

وما نراهُ من خيبة كثيرٍ ممَّن يقومُ بالأعمال، إنَّما هو مُسبَّبٌ عن الجزَع عند الحادثِ الأوَّل، فَتنَبَّه للحادث الأوَّل.

السكوتُ عندَ أوَّل فسـاد يَعرُو[4] ما تَعتنِقُهُ من العقائد، داعٍ لِسَرَيان الفسادِ إلى سائره.

---

(1) يتثَبط: يتعوق ويتباطأ.

(2) تنهد: تسرع وتصمد. المثبطات: المعوقات.

(3) الهاجس: ما يـدور في الخُلد ويخطر بالبال. الجـزع: الاضطراب، وهو نقيض الصبر.

(4) يعرو: يصيب.

وجُبْنُكَ في الدّفاع عن ثَغْرِ[1] حَقِّك، سَبَبٌ لِتغلغُل العَدُوّ في أحشائه.

وما وَلُوعُ[2] الإنسانِ بالشَّر، وضَراوتُهُ[3] بالمُنْكَر، إلا لاستهانته بكَبَحِ جِماح[4] نَفْسِهِ الأَمَّارَةِ عندَ أولَ ميلٍ للفساد.

والغَيْثُ[5] أَوَّلُهُ القَطر. ومُعْظَمُ النارِ من مُسْتَصغَر الشَرَر. والنَوَى[6] أولَ الشَجَرِ.

وداءُ الخُمار[7]، والانهِماكُ في العُقار[8]، من الكأس الأولى.

وتَتْييمُ[9] الغرام، من أول السِّهام.

والحربُ أولُها الكلام، وأوَسطُها الضِّرام[10]، وختامُها الحِمام[11].

---

(1) الثغر: الشق بين الجبلين، وموضع المخافة من البلد يخاف منه هجوم العدو وإضافة الثغر إلى الحق مجاز.

(2) الولوع بفتح الواو: الولع. و كلاهما مصدر ولع يولع، بوزن وجل يوجل.

(3) الضراوة بالأمر: تعوده حتى يصير عادة.

(4) الكبح: جذب الدابة باللجام لتقف فلا تجري. الجماح: أن يركب الفرس رأسه لا يثنيه شيء ولا يرده شيء.

(5) الغيث: المطر.

(6) النوى: بزر الثمر ونحوه.

(7) الخُمار ـ بضم الخاء: صداع الخمر وأذاها.

(8) العقار ـ بضم العين: من أسماء الخمر.

(9) تتييم الغرام: تذليله صاحبه وتعبيده إياه.

(10) الضرام: الاشتعال.

(11) الحِمام: الموت.

وإن تَجْبَه[1] كلَّ حادثٍ قبلَ أن يَجْبَهَك، وتدفعَ كلَّ طارئ قبل أن يَعْشَّكَ[2]، تأمَنِ الغوائل[3]، وتَعِشْ مُطْمَئِنًا في سِربك[4]، سعيدًا في عَمَلك، عزيزًا بينَ قومك.

أيُّها النَّاشِئون، إنَّ من أدوائِنا[5] ـ التي تَحُولُ بَينَنا وبينَ ما نَشتهي ـ الجزَعَ عندَ الحادثِ الأول، وعَدَمَ الصَّبرِ عندَ الصَدمة الأُولى. فذلك الخُلُقُ ما مَلَكَ نُفُوسَ قومٍ إلا صيَّرَهم عَبيدَ العَصا[6]، وألبَسَهُم رداء الذُّلِّ، وجعلَ سَعيَهُم سُدى، وعَمَلَهُم هَباءً منثورًا تَذْرُوهُ[7] رِياحُ الجُبنِ والجزَع.

فَتعوَّدُوا، رَعاكم اللهُ، الصَّبر، وتَشَدَّدُوا عندَ الحادثِ الأوَّل، يَسْهُلُ عليكم تَلَقِّي ما بعدَه، وتكوُنوا في أعمالكم ناجحين.

* * *

(1) تجبه: تدفع وتمنع، وأصل معنى الجبه: ضرب الجبهة.
(2) يَعشَّك: يضربك أو يطلبك. يقال: عشه إذا ضربه، وعشه إذا طلبه.
(3) الغوائل: المهلكات.
(4) السرب بكسر السين: النفس.
(5) الأدواء: جمع داء.
(6) عبيد العصا: أذلاء.
(7) الهباء: الغُبار، أو شيء يشبه الدخان في ضوء الشمس. منثورًا: متفرقًا. تذروه: تذره وتفرقه وتطيّره.



انتظر الساعة

نَجاحُ العمَلِ أن يَتولاهُ أَهلهُ، والإخفاقُ[1] فيه أن يُوَسَّدَ[2] إلى غير أهله.

ما رأينا عملًا من الأعمال تَوَّفقَ فيه القائمون به إلا كانوا من من الصَّالحين له. وما شاهدنا مصلحة من المَصالح أخفقَ فيها عُمَّالُها، إلا كانوا من الطُفيليين[3] عليها.

إنَّ لكلّ عَمَلٍ وُسِّدَ إلى غير أهله نهايةً هي الخراب، وساعةَ ينْتَهي إليها أهله، هي الخيبة فيه. وإلى ذلك الإشارة في الحديث الصحيح: «إذا وُسِّد الأمرُ إلى غير أهلهِ فانتظِر السَّاعة»؛ أي ساعةَ الإخفاقِ فيه وفسادهِ.

ومتى فَسَدَ هذا الكون، وتمادى مَن عليه في الفُسُوق والعِصيان، وأوَسعُوا الخُطا[4] في التَّفرُّق بعدَ الاجتماع،

(1) الإخفاق: الخيبة، أي عدم النجاح. أخفق في الأمر: لم ينجح فيه.

(2) يوسد: يسند.

(3) الطفيلي: من يدخل في أمر لم يدع إليه، نسبة إلى طفيل رجلٍ من أهل الكوفة كان يأتي الولائم من غير أن يدعى إليها.

(4) الخطا: جمع خطوة.

والتَّخريب بعدَ العُمران، والكُفرِ بِسُنَنِ[1] اللهِ بعدَ الإيمان، كانت ساعتُه، وقامت قيامتُه، وصَدَمْتهُ الصَّدَماتُ، تَتْلوها[2] النَّكَبات: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ[3] ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ[4] ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ[5] ۝ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ[6]﴾ [النّازعات: 6 ـ 9]. وإنَّما يكونُ ذلك، لأنَّ أهلَهُ لم يَبْقَوا صالحين له، بما أتَوهُ من ضُرُوب الفُسوق[7] عن الأنظِمة التي سَنَّها اللهُ لِيعمَلوا بها؛ حتى إذا لم يَبْقَ في قوس الرَّجاء مِنْزَعٌ[8]، أخذَ الفاسقَ عن سُنَّته أخذَ عزيزٍ مُقْتدِرٍ؛ وأورَدَهُ مَوارِدَ ما كَسَبَتْهُ يداهُ.

تلكَ سُنَّةُ اللهِ؛ ولن تَجِدَ لِسُنَّة اللهِ تبدِيلًا.

ما من قوم عُهِدَ إليهم في أمر، فَلَم يُحسِنوا في سِياسته، ولم يَرعوهُ[9] حَقَّ رِعايتِه، إلا انتزَعَه منهم مَن عَهِدَ إليهم فيه؛ ووَسَّدَهُ إلى غيرهم مِمّن يَراهُ صالحًا له. فإن أبقاهُ في يَد من أساء التَّصرُّف فيه، فانتَظِر ساعةَ خرابه.

---

(1) سُنن الله: أنظمته التي سنها لعباده.

(2) تتلوها: تتبعها.

(3) ترجف: تضطرب. الراجفة: المراد بها النفخة الأولى التي تكون مقدمة ليوم القيامة.

(4) الرادفة: التابعة، والمراد بها النفخة الثانية.

(5) واجفة: مضطربة خائفة.

(6) خاشعة: ذليلة خاضعة.

(7) الفُسوق عن الشيء: الخروج عنه.

(8) لم يبق في قوس الرجاء منزع: لم يبق أمل ولا رجاء. والمنزع بكسر الميم: السهم.

(9) لم يرعوه: لم يحفظوه ولم يتعهدوه.

التَّوفيقُ في الأعمال أن تُوَسَّدَ إلى صالح أهلها:

فإن يُعهَدْ في العلم في الجُهَّال عَمَّ الجهلُ وسادَ أهلُه؛ فساءَ بذلك المَصِير.

وإن تُسْـنَدِ الصِّناعات إلى من لا يُحسنُها، كانت عاقبةُ ذلك الخُسرانَ وفسادَ الأَعمال.

وإن أُلقيَـت إلى الفُسَّـاق، أو الجَهَلَة في الدِّيـن، مَقاليدُ[1] الوَعظ والإرشـاد، ومُنِحُوا مَناصِـبَ التَّدريـس، وأُقعِدُوا على مَنَصَّات[2] الأَعمالِ الدّينيَّة، ضَلَّلُوا الناس، وسَلَكوا بهم غيرَ سبيل الهُدى. وفي ذلـك ما فيه من إضعاف الدِّينِ فـي نفُوس العامَّة، وتَشويهِ مَحاسِنِهِ في عُيُون الغريبِ عنه.

ومتى وُسِّدَت أعمالُ الدَّولة إلى الأغرار[3]، الذينَ لا يعرفون منها إلا أسماءها، أو إلى الذين لا يرقُبُونَ في مَصالحَها إلَّا[4] ولا ذِمَّـةً - بل يَعمَلـون ليلَ نَهارَ على مـا يُضعِفُ بأسـها، ليُترعُوا حَقائِبَهُم[5]، ويُشبعُوا بُطُونَهم، وإن كان في ذلك الخراب - فانتظر السَّاعة، وارتقِب[6] قِيامةَ الدَّولة.

---

(1) المقاليد: المفاتيح. والمفرد: مقلاد.

(2) المنصات: جمع منصة - بفتح الميم وكسرها - وهي الكرسي. وأصلها الكرسي تُرفع عليه العروس في جلائها لترى من بين النساء.

(3) الأغرار: جمع غرّ وهو من لم يجرب الأمور.

(4) الإل: العهد.

(5) الحقائب: جمع حقيبة، وهي خريطة يعلقها المسافر في الرحل للزاد ونحوه.

(6) ارتقب: انتظر.

وإلى كل ذلك الإشارةُ في الحديث: «**استَعينُوا على كل عَمَلٍ بِصالحِ أهلهِ**». فإن استَعَنَّا بالصَّالح للأمر عليه، كان من ورائه التوفيقُ فيه والنَّجاحُ. وإن مَهدنا في العمل إلى غير صالحٍ له، فَقَدْ أسلَمْناهُ إلى الخراب، وقَذَفناه في لُجَج الدَّمار[1].

فأُوصِيكَ، أيها النَاشئ، أن لا تستعين في عمل من أعمالك إلا بِمَن يكون له أهلًا. وإلا أخفَقَت في سعيك، وعَرَتْك الخَيْبةُ في أمرك.

وإيَّاك أن تَتَوَلَّى عَمَلا لا تَصْلُحُ له؛ كيلا تكونَ من النَّادمين، ويكُونَ مُوَلِّيك من الخاسرين؛ يومَ تأتيك ساعةُ الشُؤم، فتذَرُكَ وعملَكَ في الهاوية[2]. فاحذَر ذلك؛ إنِّي لك من النَّاصحين.

* * *

(1) اللجج: جمع لجة وهي معظم الماء. الدمار: الهلاك.

(2) تذرك: تدعك وتتركك. الهاوية: الحفرة العظيمة.



التَّجويد[1]

تَجويدُ العملِ مَـعَ الإبطاء[2] به، خيرٌ من الإسـراع فيه مَعَ إردائه[3].

ولأَنْ تمْشِيَ كلَّ يومٍ ساعةً، وتَستريحَ سائِرَ اليوم، حتى تَصِلَ إلى المقْصِدِ[4] في راحةٍ، خَيرٌ من أن تَسير النَّهارَ كلَّه، حتى تَبْلُغَ ما أنتَ تَقْصِدُ له في مِشَقَّةٍ وعَناء[5].

وعَمَلُكَ كلَّ يومٍ ساعاتٍ معدودةً، مَعَ إتقانِ صُنْعِك، أولى من أن تَجْهَدَ[6] نَفْسَك اليومَ كلَّهُ حتى تَمَلَّ. فإنَّ المَلَلَ داعيةُ الإساءَةِ في العمل، وسببُ الانقطاع عنه.

العِبادةُ شيءٌ جميلٌ تَصبُو[7] إليه نُفُوسُ المُؤْمنين. ومَعَ هذا،

---

(1) التجويد: التحسين والاتقان.

(2) الإبطاء بالشيء: تأخيره.

(3) الارداء: الافساد، أردأ الشيء: أفسده، وأردأ الرجل: فعل فعلًا رديئًا.

(4) المقصد: مكان القصد.

(5) العناء: التعب والمشقة.

(6) تجهد نفسك: تتعبها وتحملها ما لا تطيق.

(7) تصبو: تميل.

فالانقطاع إليها، وتَفْريغُ النَّفْس لإقامة شَعائرها[1]، أمرٌ ذَمَّهُ الشَرعُ؛ لِمَا في الإكثار منها من إردائها وإهمالِ تَجْويدِها؛ حتى تكونَ نِهايةُ الأمر السَّامةَ منها. وقد ورَدَ في الحديث: «**إنَّ لِرَبِّكَ عليكَ حَقًّا، وإنَّ لنفسِك عَليك حَقًّا؛ فأَدِ كلَّ ذِي حقٍّ حَقَّه**».

رأينا كثيرًا من الناس يَعمَلون كثيرًا في وقت قَليل؛ حتى إذا آنَ[2] وقتُ استِثمارِ[3] العمل، لم يُوافِقِ حِسابُ الحَقْلِ حِسابَ البَيْدَر[4]. وما ذلك إلا لأنَّ النَّاسُ لا يختارون من العمل إلا ما كان جَيّدًا مُتْقَنًا. فَيَبْذُلون في سبيله ما يَليقُ به من الثَّمَن. وإن أخذُوا الرَّديءَ، فلا يَنْفحُون صاحبَه إلا بالنَّذْرِ[5] اليسير الذي يُساويه.

ورأينا بعضَ النَّاس يعملون العمل القليلَ في مُتَّسَعٍ من الوقت، لِيَزيدُوا في إتقانه. ومتى دنَت[6] ساعةُ النَّتيجة قَطَفُوا من أشجار صُنْعِهم ثَمرَاتٍ كثيرةً يانعة[7]. وما هي إلا ثَمراتُ التَّحسينِ والتَّجويد.

---

(1) شعائرها: أعمالها. والمفرد شعيرة، وهي كل ما يجعل علمًا لطاعة الله.

(2) آن: حانَ وقَرُب.

(3) استثمار العمل: الانتفاع بثمراته.

(4) الحقل: الزرع ما دام أخضر، والأرض الطيبة المخصصة للزرع. البيدر: الموضع الذي يداس فيه الحَبّ. والعبارة مثل العامة، يقال لما لم توافق مقدماته نتائجه.

(5) ينفحون: يعطون. نفحه بشيء: أعطاه إياه. النذر: القليل اليسير.

(6) دنت: قربت.

(7) يانعة: طيبة. ينع الثمر وأينع: أدرك وطاب وحان قطافه.

التَّجويدُ ضَرُوريٌّ لحياة الأَعمال، وضَربَةُ لازبٍ[1] لِمَن أرادَ التَّوفيقَ فيها. وقد وَردَ في الحديث: «**كتَبَ اللهُ الإحسانَ على كلّ شيء**». والإحسانُ معناه الإتقانُ والتَّجويد. فمَن أحسنَ في عمله، وجَوَّدهُ فأتقنَ تجويدَه، جَنَى من وراء إتقانه ما لا يعرفُهُ إلا المُحسِنُون في أعمالهم، ومن أساءَ فيه، كانت عاقبتُهُ الحِرمان والنَّدَم.

وما الأعمالُ إلا كالبَساتين:

فَكما أنَّ البُستانَ الذي يُجَوِّدُهُ البُستانيُّ، ويَخْدُمُهُ خِدمةً صادقة، يُؤتِي أكُلَهُ جَنِيًا[2]؛ فكذلك سائرُ الأعمال.

ليست العَجلةُ في العمل سَبَبَ التَّوفيقِ فيه. فَرُبَّ عَجَلةٍ أعقبَت رَيثًا[3]، وأورثت نَدامة. وإنما التَّرَوّي في تجويده هو الدَّاعي إلى النَّجاح فيه. وقد ورد في الحديث: «**إنَّ هذا الدّين مَتين؛ فأوغِل فيه[4] بِرفقٍ؛ ولا تُبغِّضْ لِنَفسِك عبادة الله؛ فإنَّ المُنْبَتَّ[5] لا أرضًا قطَعَ، ولا ظَهْرًا أبقَى**».

---

(1) هذا الأمر ضربة لازب وضربة لازم: أي ثابت لازم لا بد منه.

(2) الأكُل بضم الهمزة والكاف، ويجوز تسكين الكاف أيضًا: الثمر، والرزق الواسع. جنيًا: غضًا طريًا: والجنى: الثمر الذي قطف من ساعته.

(3) الريث: البطء.

(4) أوغل فيه: ادخل فيه، أوغل في البلاد إيغالا: ذهب فيها وبالغ وأمعن.

(5) المنبت: المنقطع عن رفاقه في السفر، الذي أتعب دابته فانقطعت به «راجع شرحه في عظة الاعتدال، ص: 99».

فاحذروا، أيها النَّابتُون، الإسراعَ في العمل من غير تجويده. فالإسراعُ ـ قبل التَّرَوِّي ـ داعيةُ الخيبة وسببُ الإخفاق[1]؛ والتأني ـ مع التَّحسين ـ سَببُ التَّوفيق. وإنَّ النَّاس ـ كما قال الفَيلسُوفُ ـ لا يَسألون عن سُرعة العمل؛ وإنَّما يَسألون عن جُودته[2].

* * *

(1) الإخفاق: الخيبة.
(2) الجودة ـ ضم الجيم وفتحها: الصلاح، وجاد الشيء يجود: صار جيدًا.



المرأة

من أمثال العَرَب: «**كلُّ ذاتِ صِـــدارٍ**[1] **خالة**»؛ أي إنَّ من حقِّ الرَّجُلِ أن يغارَ على كل امرأةٍ، كما يغارُ على حُرَمِهِ؛ لأنَّ كلَّ امرأةٍ أختٌ لأُمِّه في الجِنْسيَّة، فتكونُ خالةً له.

كانت حالةُ المـــرأة الاجتماعيـــةُ ـ ولم تَـــزلْ ـ على أطوار مُختلفة، وشُكُولٍ مُتَباينة[2]، بالنِّسبة إلى تَنَوُّعِ الأزمنة والبيئات[3]. فهي بينَ صُعُودٍ وهُبُوط، واحتـــرامٍ واحتقارٍ، وعِلْمٍ وجهلٍ؛ تابِعةً ترَقِّيَ البيئةِ وتَدَنِّيَها[4]، ونُورَ الزَّمَن وظُلمَتَه.

المرأةُ لم تُخْلق إلا لتكونَ والرجلَ عامِلَيْنِ في بُستان الحياةِ. بَيْدَ أنَّ لِكلِّ واحدٍ منهما عَمَلًا خاصًا به، لا يَجْمُلُ[5] به أن يَتَعَدَّاه.

---

(1) الصِدار: ثوبٌ صغيرٌ يلي الجسم.

(2) الشكول: الأشباه والأمثال، والأمور المختلفة المشكلة. والمفرد شكل، بفتح الشين. متباينة: مختلفة متضادة.

(3) البيئات: جمع بيئة و هي المنزل، ويراد بها ما يحيط بالإنسان من المؤثرات.

(4) التدني: الانحطاط.

(5) لا يجمل به: لا يحسن به ولا يليق به ولا ينبغي له.

فالرَّجُلُ يَفلحُ أرضَه ويَغْرِسُ غَرْسَهُ، ويَبْذُرُ حَبَّه[1]. والمرأةُ تتَعهَّدُ الحَبَّ والغرسَ بالسَّقْي، وتنفي ما يُجاورهما من فاسد النَّبات.

وما البُستانُ إلا البيت. وما عَمَل الرَّجلِ إلا السَّعيُ لِمَن يحويه من الأهل، وبَذْلُ الجهْدِ ليَحْيَوا حياةَ السعادة. وما عَمَلُ المرأة إلا تنظيمُ المَنْزِلِ، وتَربيَةُ الأطفالِ، وبَثُّ[2] الأخلاق الفاضلة في نُفُوسهم، وتَنْحِيَةُ الضَّرائب[3] الفاسدة عن موارد قُلوبِهم؛ ليتَكَوَّنَ منهم مجموعٌ فاضلٌ تَنْهَضُ به الأُمَّة، ويَسْتَدُّ[4] به ساعدُ الوطن، ويَشْتَدُّ رُكنُهُ.

فإن أهملَ ما وجب عليه، أو جاوزت المرأةُ ما خُلِقَت له، أو قَصَّرَت عنه، فَسَد نِظامُ الأُسرة[5]، وتَثَلَّم[6] رُكنُ الحياةِ البَيتيَّة، فكان من جَرَّاء[7] ذلك الفَتُّ في عَضُد الأُمَّة، والكَسْرُ في ساعد الوطن[8]. لأنَّ صَلاحَ الأُمَّةِ ونُهوضَ الوطن مُتَوَقفانِ على صلاح الأُسَر.

---

(1) يبذر حبه: يلقيه في الأرض للزراعة.

(2) البث: النشر.

(3) التنحية: الإزالة والإبعاد. الضرائب: الطبائع، والمفرد ضريبة.

(4) يستد: يكون سديدًا قويمًا.

(5) الأسرة: رهط الرحل وأهله. سموا بالأسرة ـ وهي الدرع الحصينة ـ لأنه يتقوى بهم. وجمعها أسر.

(6) تثلم: تشقق.

(7) من جراء ذلك: من أجل ذلك.

(8) الفت في العضد والكسر في الساعد: كناية عن إضعاف القوة وتفريق الأعوان.

ولا ريبَ أنَّ سعادةَ النَّشئ ـ وهُم عِمادُ الأُمَّة ـ أكثرُ ما تكونُ بالمرأة. فهي إن شاءَت أفسدت أخلاقَهم، وإن شاءت أصلَحَتها؛ لأنَّ بِيَدِها زمامَ تَربيتهم وتهْذيبهم. لذلك وجبَ أن تكون المرأةُ مُحترَمةَ الجانب، رَفيعةُ المَنزلة، متعَلِمة، مُترَبية، متَخلِقةً بالأخلاق الجميلة، صالحةً لإدارة المَنْزِل، عالمةً بما وجبَ عليها نحوَ العالَمِ الصَّغير ـ ألا وَهُو البَيْتُ.

وبعدُ، فإنَّ جماهيرَ[1] نِساء الشَّرقِ اليوم، وقبلَ بِضْعِ[2] مئاتٍ من السِّنين، قد أُهمِلَت كالسَّوائم[3]. فقد ظنَّ الرجالُ أنَّ المرأةَ آلةٌ في أيديهم يُديرُونها كيف شاءوا؛ زاعمينَ أنها لم تُخْلَق إلا لتكونَ أسيرًا أو مَمْلُوكة. واهتَضَمُوا ما لها من الحُقُوق الشَّرعيَّةِ والطَّبيعيَّة، وحَرَموها التَعليمَ والتَّربية. فساءَت بذلك الحياةُ البيتيَّة، وفَسَدَت الأُسرةُ؛ وانحطَّتِ الجماعاتُ بانحطاط الأفراد.

وقد شَعَرَ الشّرقُ اليومَ بذلك الضَّعفِ والنَّقْص؛ فَنَهضَ فيه بعضُ من هَداهُمُ اللهُ الصِّراطَ المُسْتَقِيم؛ وانصرفت هِمَمُهُم إلى تعليم البنات وتَهْذِيبهنَ. لأنَّهم اعتقدوا جدَّ الاعتقادِ أنَّ المرأةَ

---

(1) الجماهير: جمع جمهور وهو معظم الشيء وأكثريته. وأصل معناه: الرمل الكثير المتراكم الواسع.

(2) البضع: ما بين الثلاث إلى التسع. فإن قلت: جاءني بضعة رجال، جاز أن يكون الجاءون ثلاثة أو تسعة أو ما بينهما. وهي تذكر مع المعدود المؤنث وتؤنث مع المعدود المذكر، كما هو الشأن في العدد من الثلاثة إلى التسعة.

(3) السوائم: الإبل التي لا تُعلف في مكان مبيتها، وإنما تترك ترعى مما تنبته الأرض من المرعى المباح.

رُكنُ الحياةِ الاجتماعيَّة الرَّكينُ[1]، وسَـنَدُ نُهُوضِ الأُمَّةِ الأقوى. ولكنَّ هذا التَنبُّهَ ضعيفٌ. فَعَسَى أن يَقْوَى بكم، أَيُّها الناشِئُون الكرام. فإنَّ للناشئات عليكم حقُوقًا عظيمةً؛ لأَنَّهُنَّ خالاتُكم. والخالة كالأُمِّ؛ أو هيَ الأُمُّ. ومن لا يَوَدُّ لأُمه الحياة السَّعيدة!

إنَّ ما تَرَوْنَهُ من انحطاط الجماعات، إن هُو ناشئٌ إلا من انحطاط المرأةِ وجهلِها وفسادِ تربيتها. فَعَلِّمُوا البناتِ، تسْتَحْوِذُوا على الباقيات الصَّالحات[2].

ألا إنَّ تبذيرَ المرأة وإسرافَها وحَيدانَها عن جادَّة[3] الاقتصادِ في اللَّبُوسِ[4] - حتى نَهَكَتُ ثَروةَ الرجلِ[5]، وجَرَّت على الهيئة الاجتماعيَّة الوَيْلاتِ[6] - هو لأنها لم تَتَعلَّم العلمَ المفيد، ولم تَترَبَّ التربيةَ الصحيحة.

فعليكم، معشرَ الناشئين، أن تُرَبُّوا بَناتِكم - متى صرتُم أرباب بُيُوت - تربيةً فاضلة، وتُعَلِّمُوهُنَّ تَعليمًا مفيدًا، يَنْهَضِ الوطنُ، وتَشْرُفِ الأُمَّة.

---

(1) الركين: القوي.

(2) تستحوذوا: تستولوا. الباقيات الصالحات: الأعمال الصالحة التي يبقى أثرها الصالح وتعود بالثواب على فاعلها.

(3) الحيدان: الميل والعدول. الجادة: وسط الطريق ومعظمه.

(4) اللبوس: بفتح اللام: كل ما يلبس.

(5) نهكت ثروته: نقصتها أو أبادتها. يقال: نهك الضرع إذا استوفى جميع ما فيه، ونهكت الحمى إذا أضنته ونقصت لحمه. ونهك ماء الإناء إذا شرب جميع ما فيه.

(6) الويلات: المصائب، والمفرد ويلة.



اعقل وتوكّل

ما رأيتُ أَقلَّ عقلا، ولا أضعفَ مُنَّةً[1] مِمَّن يُقدِمُ على الأمر قبلَ أن يَسْتَعِدَّ له.

بَلَى، أشدَّ منه حُمْقًا، وأكثرُ ضَعْفًا، من يَخُوضُ مَيْدانَ العمل قبلَ أن يأخُذَ لهُ عُدَّته؛ وهوَ يَعلَمُ أنَّ من عَمِلَ عَمَلةً كانت عاقبةُ أمرِهِ الخسارَ والبَوار[2].

وليس أقلَّ بَلَهًا مَن يَترُكُ الأُمور اتِّكالًا على البَحْث وهُبُوب رياحِ المَقادير، من غير أن يَسْعَى فيما يُدّنِي له الشّاسع[3]، ويُسَهِّل الصَّعْب!.

الإخفاق[4] في الطَّلَب ناتجٌ عن أحد أمرين، هُما الطَّرفانِ المُفْسِدان لكلّ مشروع: الجُبنِ والتَّهَوُّر.

فالجُبْنُ يَصْدِفُهُ[5] عن العمل، ويَدَعُهُ[6] مُتَّكِئًا على عَصَا

(1) المُنة: القوة.

(2) البوار: الهلاك.

(3) يدني: يقرب. الشاسع: البعيد.

(4) الإخفاق في الأمر: الخيبة وعدم النجاح فيه.

(5) يصدفه: يصرفه.

(6) يدعه: يتركه.

المَقادير. وإنَّ اللهَ قد جَعَلَ لكلّ شيءٍ سَــبَبًا. وسَبَبُ النّجاحِ في الأمر السّعيُ إليه من أبوابه المُوصِلة.

والتَهَوُّرُ يَدفَعُه نحوَ غايته قبلَ التَّروّي في الأسباب المُوصِلة إليها، واختيارِ أنجَحِ الوســائل للحُصول عليها. وكثيرًا ما تكونُ العاقبةُ شَرًّا وَوَبالا[1]. ومن تأمَّل في العواقب، أمِنَ المصائب.

والسَّلامةُ من ذلك، أن يَتَرَيَّث[2] قبلَ الإقدام. فلا يَندفِعُ في العمل إلا بعدَ أن يَعلَم عِلمَ اليَقين ـ أو ما يَقرُبُ منه ـ أنه لا يَفْشَلُ عنه[3]. وليس معنى هذا أن يُحجِمَ لأوَّل صَدمةٍ، أو تُؤخِّرهُ شُبْهةٌ تَعرِضُ له؛ فَيَتْخِذَها حُجَّةً للإحجام[4]. فإنَّ هذا هو الجُبْنُ بعينه.

يُقْدِمُ كثيــرٌ من الناس على الأعمال العظيمــة؛ فلا يَلبَثُ أن يَعْتَورَ[5] إقدامَه الإخفاقُ. ولذلك أسبابٌ؛ منها إهمالُهُ الأُهبةَ[6]، وعدَمُ اتخاذِ العُدَّة. وقد وَرَدَ في أمثال العَرَب: «**عِنْدَ النِّطاحِ يُغْلَبُ الكَبْشُ الأجَمُّ**[7]»؛ وهو مَثَــلٌ يُضْرِبُ للرَّجلِ يمارِسُ الأُمورَ بغير عُدَّةٍ فَيَخِيب.

---

(1) الوبال: سوء العاقبة، والوخامة والشدة.

(2) يتريث: يتمهل.

(3) فشل عن الأمر: جبن فنكل عنه ولم يمضه. والمعنى أنه لم يتوفق، لأن من جبن عن أمر فتركه فقد خاب فيه ولم يوفق له. وأصل معنى الفشل: الجبن والضعف وذهاب القوة.

(4) الإحجام: التأخر.

(5) يعتور: يصيب. اعتوره الأمر: نزل به مرة بعد مرة.

(6) الأهبة: العدة.

(7) الأجم: الذي لا قرن له.

وكثيرُ منهم يُهْمِلُ الأمرَ اتِّــكالا على أنَّ القَدَرَ يَحْفَظُهُ. وكان يَجبُ عليه أنَ يَحفَظَهُ، ثم يِكِلهُ[1] إلى عين العِنايةِ ترعاهُ[2]. وقد قال رجــلٌ للنَّبيَ ﷺ: «أُرسِــلُ ناقتي وأتَوَكَّلُ» فقَالَ لــهُ: «**اعقِلْها وتَوكَّل**[3]».

ومن أمثالهم: «**أن تَرِدَ الماءَ بماء أكيَسُ**[4]»؛ يَعْنُون بذلك أن يأخُذَ الرجلُ الأمرَ بالحَــزمِ والوَثيقة. ومن ذلك قَولهُم: «اشــتَرِ لِنَفْسِكَ وللسُّوقِ»؛ يُريدُون بذلك أن يأخُذَ المَرء الحِيطةَ[5] لِنَفْسه قبل الإقدامِ على العمل، وأن يَسْتَشيرَ مَن يَثِقُ بهم ليُرشدُوه إلى ما فيه الخير.

ومن الناس من إذا تمكَّنَ من ناصية[6] الأمرِ عَقَدَهُ بأُنشُوطَة[7]. حتى إذا أفَلَتَ من يِدِهِ نَدِمَ على ذلك نَدامةَ الكُسَعِيِّ[8]؛ وهَيهاتَ[9] أن تُفِيدهُ النّدامة.

---

(1) يكله: يسلمه.

(2) ترعاه: تحفظه وتتعهده.

(3) اعقلها: اربطها. والعقل: الربط. ومنه سمي العقل المعروف لأنه يربط الإنسان أن يأتي ما يضره.

(4) أكيس: أعقل. والكيس ـ بفتح الكاف وسكون الياء: العقل والفِطنة وحُسن التأني في الأمور.

(5) الحيطة: الاحتياط.

(6) الناصية: مقدم الرأس.

(7) الأنشوطة: عقدة يسهل حلها.

(8) الكسعي: رجل يُضرب به المثل في الندامة.

(9) هيهات: اسم فعل ماضي بمعنى بعد، وهي مثلثة التاء.

ألا إنّ من كان كذلك، فهــو مِمَّن عُلِّمُوا قليــلًا وليس لهم مَعْقُــول[1]. لأنَّ العقــلَ يَربْأُ بالمَــرء[2] أنَ يردَ مَــواردَ الإهمالِ والاتكال. فالعاقلُ من لا يَرِدُ حتى يعرفَ الصَّدَرَ[3]. فهو يُفاضِلُ بين الضَّرَرَينِ لِيَرتكِب أخَفَّهُما. فإنَّ في الشَرِّ خِيارًا. وليس العاقلُ من يَعرفُ الخيرَ والشَّــر، وإنما هو مَنْ يَعرِفُ خيرَ الشَرَّين. فإنَّ بعضَ الشرِّ أهونُ من بعض.

فإليك، أيّها النَّاشئُ، يُساقُ الحديثُ:

احذَرْ أن تُباشِــرَ عَمَلًا قبلَ الاستعداد له. ولا تَتْرُك عَملًا من أعمالك اتكالًا على ما سيجيءُ به القَدَر. فالعاقلُ من عَقلَ وتَوَكَّل.

* * *

(1) المعقول: العقل.

(2) يربأُ بالمرء: يرفعه وينهض به ويمنعه.

(3) الصَّدر: الرجوع عن الماء بعد وروده.



الاعتماد على النفس

لا شيءَ أضرُّ بالإنسان من إهماله شُؤُون نفسه، مُعتَمِدًا على من يقومُ له بها. هذا إنَ تَحَقَّقَ أنَّ من يَعتَمِدُ عليه يُلَبِّيه ـ إن دعاهُ ـ من غير تَرَيُّثٍ[1] ولا بُطء. أمَّا إن كان نَصرُهُ إيَّاه أمرًا مشكُوكًا فيه، فاعتمادُه عليه ضَربٌ من الجُنون.

جاء في أمثال العَرَب: «**عَمُّكَ خُرجُك**[2]»؛ يُقالُ ذلك لِلمُتَّكِل على غيره. وذلك أنَّ رجُلًا أرادَ السَّفَرَ مَعَ عمِّه، فقال لأهله: «اتَّخِذُوا لي طعامًا واجعلوهُ في خُرْجٍ، أُصِيبُ منه إذا احتجتُ إليه»؛ فقالوا له: «**عَمَّك خُرْجُك**»؛ أي اتَّكِل عليه في مَطْعمِك.

المُعَتمِدُ على غيره يكونُ ضعيفَ الإرادة، بَليدَ الحَزْم، خاملَ النَّفْس. وما سَرَى هذا الداءُ في أُمَّةٍ إلا انحَلَّ عَقْدُ اجتماعِها، وفَسَدَ نِظامُ عُمرانها؛ حتى تُصبحَ في مُؤَخَّرة الأُمم. فالاتِّكالُ

(1) التريث: التمهل.

(2) الخرج: معروف. وجمعه أخراج. ويجمع أيضًا على خرجة ـ بكسر الخاء وفتح الراء.

على غيـر النَّفْس مَدْعـاةُ الانقراض؛ لأنهُ يُلبسُ الإنسـانَ رداءَ الضِّعة[1] والضَّعف، ويَصْرِفُهُ عـن النَّظَر فيما يَقُودُهُ إلى حُصُونِ القُوة والمَنَعة[2].

يَنْشـأُ الطِّفلُ مُعتمِدًا ـ في كلَ شأنٍ من شُـؤُونِ نَفسِهِ ـ على أبَوَيه؛ إلى أن يَبْلُغ أشُـدَّهُ[3]. ثمَّ يَدخُلُ غِمـارَ الحياة[4]؛ وهو لا يعرف للاتِّكاء على عَصا نفْسـهِ معنى؛ لأنه لـم يَتعوَّد ذلك في نشأتِهِ الأولى ـ ولِكُلِّ امرئٍ من دهره ما تَعوَّدَ ـ فَيَزيدُ بذلك الأُمَّةَ بَلاء على بلائها، وخذلانًا على خذلانها.

متى نَشأ الولَدُ فَليُعَوِّدْهُ أبَواهُ الاعتمادَ على نَفَسه، في كلّ أمر من أمُوره؛ حتى إذا شَـبَّ كان رجُلا يَخْدُمُ الأُمَّـةَ خِدمةَ الرجلِ القويّ القادر. ومتى كَثُرَ مجموعُ الشُبّانِ المُتَّكِئين على أعضاد[5] أنفُسِهم، تَكَوَّنت منهم أُمةٌ صالحةٌ لأن تكونَ وارثة الأرض.

نحنُ في حاجة إلى شُبَّانٍ جُبِلوا على الاستقلال في الفِكْر والاعتمادِ علـى النَّفْس. وما تأخَّرنا إلا بعـدَ أن ضَعُفَ فينا هذانِ الخُلُقان. وما تَرقَّى الغَربيُّون، وبلغُوا الغايةَ القُصوى[6]،

(1) الضعة: الانحطاط والخسّة.
(2) المنعة، بفتح الميم والنون، وقد تسكن النون: العز، والقوة، والمعقل يمتنع به، والعشيرة لأنها فلا يقدر عليه من يريده من الأعداء.
(3) يبلغ أشده: يشب ويتقوى.
(4) غمار الحياة: شدائدها.
(5) الأعضاد: جمع عضد وهو الساعد.
(6) القصوى: البعدى، مؤنث الأقصى.

من المَدنيَّة والعُمرانِ والسُّلطان[1]، إلا بعدَ أن رَبَّوْا نَشأَهُم[2] عليها.

وليس معنى ذلك أن يَنشأَ الولَدُ مُنفردًا برأيه، مُستبِدًا بفِكْره، لا يستشيرُ أهلَ العَقل والعلم. وإنَّما هو أن لا يَترُكَ التَّفكُّرَ والعمل مُعتمِدًا على أنَّ غيرَهُ يَتفكَّر أو يَعمَلِ. فإن رأى أنَّ فِكْرَ غيرِهِ أضمن لِنجاح العملِ من فكره، انقادَ لهُ وتَمَسَّك بِعُراهُ[3]. وإلا مضى فيما يُفَكِّرُ فيه، وأُخرجَ عَمَلُه إلى حَيّز[4] الوُجود.

فَتَعوَّد، أيُّها النَّاشئُ، الاعتمادَ على نَفْسِك، والاستقلالَ برأيك ـ على نحو ما شَرَحتُ لك ـ تكُن من المُفلحين.

واحذَر أن تَنْقادَ لرأيٍ يَدفَعُك في الهاوية، أو تُذْعِنَ[5] لِمَن لا يَحْفِزُك إلى مَنْهَج السَّداد[6].

ولا تَتَّبعْ أمرَ من يُؤَمِّنُك من المَخُوف ليُوَرِّطَك[7] فيهِ. بل اتبع

---

(1) السلطان: السلطة والقدرة.

(2) النشأ ـ بفتح الشين ـ والنشء ـ بسكونها: جمع ناشئ.

(3) العرى: جمع عروة وهي كل ما يوثق به ويعول عليه. وأصلها: مقبض الدلو والكوز، وما يدخل فيه الزر من القميص ونحوه.

(4) الحيز: المكان والجهة.

(5) تذعن: تخضع.

(6) يحفزك: يدفعك. المنهج: الطريق الواضح. السداد: الصواب.

(7) يورطك: يوقعك فيما لا تتخلص منه. وأصل معناه: يوقعك في الورطة ـ بفتح الواو وسكون الراء ـ وهي الهوة الغامضة، والهلكة، والشدة، وكل أمرٍ شاق تعسر النجاة منه. يقال أورطه وورطه توريطًا إذا أوقعه في الورطة.

أمرَ من يُخَوّفُك عواقبَ إساءَتِكَ لِتَحْذَرَها. فإنَّ من يُخَوّفُك حتى تَلقى الأمنَ أشفقُ أعليك مِمَّن يُؤَمِّنُك حتى تَلقَى الخوف. وقد جاء في أمثالهم: «**أمرَ مُبْكِياتك، لا أمرَ مُضْحِكاتِك**»؛ أي إلزم من يُبْكيكَ لِيُنْجيَك، لا من يُضْحِكُكَ ليُرْدِيَك[1]. ومن خالف في هذا الأمر، وخالفَ النَّصِيحَ عنه[2]، سَقَطَ العَشاء به على سِرحان[3]؛ فكانت عاقبتُهُ الخُسران.

إنَّ هذا هو الحقُّ؛ فلا تَكُن مِن المُمْتَرين[4]، فاتَّبِعْ ما يُلقى إليك، يُبارك الله عليك.

* * *

(1) يرديك: يهلكك.

(2) خالفني عن الأمر: ولى عنه وأنا أريده. وخالفني إلى الأمر: قصده وأنا مول عنه.

(3) السرحان: الذئب. والكلام مثل لمن ذهب في طلب أمر فكانت عاقبته الهلاك.

(4) الممترين: الشاكين. امترى في الأمر: شك فيه وارتاب.



التَّربية

إنَّ هؤلاء الأطفالَ سيكونون في المستقبل رجالًا. فإذا تَعوَّدُوا الأخلاق الصَّالحة التي تُعْلِي شــأنَهم، وحصَّلــوا من العلوم ما ينْفَعُون به وَطَنهم، كانوا أساسًا مَكينًا[1] لنَهْضَةِ الأُمَّة. وهذا أمرٌ لا يختلفُ فيه اثنان. وإنِ استعادُوا[2] سافلَ الأَخلاق، وهَجَرُوا العلم الذي هو سَــبَبٌ لحياة الأُممِ، كانوا وَيْلًا على الأُمَّة، وشَرًّا على البلاد التي يَقْطُنُونها[3].

وقد ذَكرتُ لك، أيها الناشــئ، فيم مَضَى من العِظات جُزءًا صالحًا من الأخلاقَ حَســنِها وقبيحِها؛ وأوضحتُ لك ما يَجبُ عليك التَّخَلُّقُ به؛ وكشَفْتُ من الأخلاق الفاسدة التي يَنْبغي لك أن تنْفِرّ منها نِفرَة الصَّحيحِ من الأجرَب. فاخترْ بعدَ ذلك ما تَراهُ لك نافعًا. وما إخالك[4] مُختارًا إلا ما أَرشدتُك إلى اختياره؛ لأنك تَعلَمُ جِدَّ العلمِ أني لك ناصحٌ أمينٌ.

(1) مكينًا: قويًا

(2) استعادوا: تعودوا.

(3) يقطنونها: يسكنونها.

(4) إخالك: أظنك.

التَّربيةُ، أيُّها القومُ، أمرٌ عظيمُ الخَطَر[1]، كبيرُ القيمة.

و«الطِّفلُ ـ كما قال الإمامُ الغَزاليُّ ـ أمانةٌ عندَ والدَيْه، وقلبُهُ الطَّاهرُ جوهرةٌ نَفيسةٌ خاليةٌ عن كلّ نَفش وصُورة. فإن عُوِّدَ الخيرَ وعُلِّمَهُ نشأ عليه، وسُعِدَ في الدُّنيا والآخرة، وشارَكَهُ في ثوابه أبَواهُ وكلُّ مَعلِّمٍ ومُؤَدّب. وإن عُوِّدَ الشَّرَّ وأُهمِلَ شقِيَ وهَلَك. وكان الوِزْرُ[2] في رَقَبةِ وليّهِ والقَيّم عليه[3]».

التَّربيةُ هي غَرْسُ الأخلاقِ الفاضلة في نُفوس الناشئين، وسَقْيُها بماء الإرشاد والنَّصيحة؛ حتى تُصْبحَ مَلَكةً[4] مع مَلَكات النَّفس؛ ثمَّ تكُونَ ثمَراتُها الفضيلة والخيرَ وحُبَّ العملِ لنَفع الوطن.

تَجِبُ تَربيةُ الطفلِ على الشَّجاعة، والإقدام، والجُود، والصَّبر، والإخلاصَ في العمل، وتَقْديمِ المَصلحةِ العامَّة على المصلحة الخاصة، وشَرَف النَّفْس، والجُرأة[5] الأدَبيَّةِ، والدِّينَ الخالص من الشَّوائب[6]، والمدَنيَّةِ المُنَزَّهة عن الفساد، والحُريّةِ الصحيحة في القول والعمل، وحُبِّ الوطن.

---

(1) الخطر: الشرف وارتفاع القدر.

(2) الوزر: الذنب.

(3) ولي الطفل والقيّم عليه: من يتعهده ويقوم بشؤونه.

(4) ملكة: صفة راسخة.

(5) الجرأة: الشجاعة.

(6) الشوائب: الأخلاط، والعيوب والأدناس.

وعلينـــا أن نُربيَ فيه مَلكـــةَ الإرادة والصِّـــدق، وحُبَّ إعانة البائسين[1] والمَشْروعاتِ النَّافعة، وأن نُعوّده القِيامَ بالواجب. إلى غير ذلك من الأخلاق الشريفة؛ وأن نُباعدَ بينَهُ وبينَ أضدادِ هذه الأخلاق.

ولكنَّ الحال اليومَ عندنا على غير ما شَرَحناه:

فالطِّفْل ـ وهوَ في اللّفائف ـ يُخَوّفُهُ أبواهُ بالغِيلان و«البَعابع» إرهابًا[2] له، ليَخْلُصَا من صُراخه. وما يَدرِيـــانِ أنَّ نَفس الطفلِ ـ كالشَّـــمْعة اللَّينة ـ قابلةٌ لكلّ نَقْش؛ أو كناقلِ الهَيْئةِ «الفُوتُغْراف» يَنْطبعُ فـــي زُجاجته كلُّ صُورة. فإذا ما نشـــأ عاودتُه تلك النُّقُوشُ والصَّوَرُ التي طَبَعَه في مُخَيّلَته[3] أبَواهُ. حتى إذا رأى غيرَ شيء ظَنَّهُ شيئًا. فكانت حياتُهُ ـ بمَا جَنياه عليه ـ حياةَ خوفٍ وجُبْنٍ وأوهام.

فإذا جاوزَ الطِّفلُ دَوْرَ الطُفُولةِ إلى دَوْرِ غيرهِ ـ فكانَ دارجًا[4]، فَحَفِرًا[5]، فَيافِعًا[6] ـ أخذا يُرَبيانهِ تربيةَ الحيواناتِ العُجْم: بالانتهاز تارةً، وبالضَّرب المبَرِّح[7] تارةً أخرَى. ولا تَســـل عمَّا يَسْمَعهُ من

---

(1) البائسين: جمع بائس وهو من اشتدت حاجته.

(2) إرهاباً: تخويفًا.

(3) المخيلة: القوة التي تخيل الأشياء وتصورها وهي مرآة العقل.

(4) الدارج: الصبي الذي دبّ ونما.

(5) الحفر ـ بالحاء المهملة: الصبي الذي سقطت رواضعه، وهي أسنانه التي تنبت وهو في الرضاعة.

(6) اليافع: من قارب العشرين من عمره. أو هو من قارب البلوغ.

(7) الضرب المبرح: الذي يؤذي الجسم.

أبَوَيه من بذِي الكلام[1] والكذِبِ والنِّفاق، بَلهَ[2] ما يَكْتَسِبُهُ من سَيِّء الأخلاق.

وكثيرًا ما تكون حياتُهُ المدرسيَّةُ ليست خيرًا من حياته البيتيَّة، خُصُوصًا إذا كان الأستاذُ أو المُربي مِمَّن غاظَت طِباعُهم، وخَشُنَت أخلاقُهم، وفَسَدَت ضمائرُهُم. وإن اتَّفق أنهُ دُفِعَ إلى مدرسة كاملة، فإنَّهُ يُضَيِّعُ في بيتِه ما كَسَبهُ في مدرسته.

ومتى شَبَّ النَّاشئ كانت حياتُهُ في أُمَّته صُورةً مُكَبَّرةً عن حياته في بيته ومدرسته فإما أن تَحيا به الأُمَّةُ حياة السَّعادة، إن كان قد تَرَبى تربيةً صحيحة؛ وإمَّا أن تَحيا حياةَ الشَّقاء ـ بِمَا يَجْنِيه عليها ـ إن تَرَبى تربيةً فاسقة.

رَبِيّ، أيها الأُمَّة، النَّابتة، تَكُنْ لكِ عَونًا وساعدًا، وتَنْهَضْ بكِ من كَبْوة[3] الذُّل والخُمول.

وأنتُم، أيها النَّاشئون، تَعَوَّدُوا الخُلُقَ الصالح، وأقدِمُوا على العلم النَّافع.

إنَّ مَيْدان العملِ أمامَكُم؛ فاستَعِدُّوا لِخَوضِ غِمارِه[4].

---

(1) بذي الكلام: فاحشه وقبيحه ورجل بذي وبذيء: فاحش. والبذاء والبذاءة والبذاوة: فحش الكلام. يقال: بذو يبذو بذاء وبذاوة فهو بذيّ، وبذوء يبذؤ وبذأ يبذأ وبذاءة فهو بذيء.

(2) بله: اسم فعل أو بمعنى دع واترك.

(3) الكبوة: السقطة.

(4) الغمار: جمع غمر وهو الماء الكثير البعيد القعر.

اليومَ الاستِعدادُ لخدمة الأُمَّة؛ وهُناك ـ بعدَ انصرامِ[1] زَمَنِ الصِّبا ـ يكونُ السِّباقُ؛ وسَنرَى من يكونُ الفائز. فَمَن جَدَّ اليومَ نالَ في الغَد. ومَهْما يَفعَلِ النَّاشئُ في هذه السِّنَ، فَسَوفَ يُلاقيه في زَمَن الشَّباب.

فما أعدَدْتَ، أيها النَّابتُ، لِغَدِك؟ وأيَّ عَمَلٍ تَعمَلُ الآن، لتكونَ أُمَّتُكَ سعيدةً بك في المُستَقْبَل؟

ـ أَعدَدْتُ هِمَّةً ونَشاطًا، وعِلْمًا وأخلاقًا، وغِيْرةً وَحَمِيَّة، وَمَحَبَّةً وَطنيَّة.

ـ باركَ اللهُ عليك، وَحقَّقَ آمالنا فيك؛ فَبِك يَعْمُرُ الوطنُ، وتَحيا الأُمَّة.

* * *

(1) انصرام: انقطاع وذهاب.



خاتمة العِظات

السَّلامُ عليكَ، أيها النّاشئُ، ورحمةُ اللهِ وبَرَكتُهُ.

وبعدُ فإن صَديقَكَ ـ صاحبَ العِظات ـ يُوَدِّعُكَ وَداعَ مُحِبٍّ لك، راغبٍ في نجاحك، ويَرْجُو منك أن لا تَنْبذَ[1] عِظاتهِ ظهْريًا. فإنَّ رُوحَ المَطالعةِ أن تعملَ بَما تَقرأُ. وما ضَرَّ هذا الشَّرقَ إلا تركُ العملِ بما يَعلم.

إنَّ الأُمَّةَ تُناديك. فَليكُنْ جَوابُها العملَ لِمَا يُحْييها، والسَّعيَ في إصلاح شُــؤُنِها. واعلَم أنك لا تَحيا حيــاةً طَيِّبةً إلا بحياتها، وقُوَّةِ بأسِها[2]، واستِبحارِ عُمْرانِها[3]، وبَسْطةِ سُلطانِها[4]. فاحزُمْ واعمَل؛ فإنَّ العملَ سعادةُ الحياة:

إذا مــا شِــئتَ أن تَحيــا عزيزًا   مَهِيبَ البأسِ مَعرُوضَ القَناة[5]

---

(1) تنبذ: تطرح.

(2) البأس: الشدة والقوة.

(3) استبحار العمران: اتساعه وانبساطه.

(4) السلطان: القوة والسلطة والسيطرة.

(5) مهيب: مخوف. معروض القناة: تحمل قناتك بالعرض. والقناة الرمح، وعرض القناة ـ أي حملها بالعرض: كناية عن العزة والإمتناع.

فلا تَـرْجُ الحيـاة بغيـر حَزْمٍ يَفُلُّ السَّـيفَ مَحدُودَ الشَّباةِ[1]
ويَترُكُ في صَميـم الدَّهر جُرحًا يُحَيّـرُ داؤُهُ نُطُـسَ الأُسـاة![2]
فَهَلْ من نَهضَةٍ، يانَشـئُ، نُدْني بها تلك الأَمانِـي النَّائياتِ؟[3]
وهل من نَجْدةٍ منكم؛ فَنَسْـمُو إلى أعلى النُّجُومِ الزَّاهرات؟[4]
وهل مِـن هِمَّةٍ وثَبـاتِ جأشٍ نَهُدُّ بـهِ الجِبالَ الرَّاسِـياتِ؟[5]
فَقَدْ طالَ الخُمولُ؛ ونحنُ نَلهُو عن الخُلُق الأَبِي بالمُخْزياتِ![6]
فَكَـمْ قَدْ قـامَ فينا مِـن هُداةٍ! ولكـنْ لا نُنَهْنَهُ بالعِظـاتِ![7]

فَهُبُّوا، أيها النَّاشئون، إلى المَجْد؛ وسِيرُوا في سبيل العِزّ؛ فإني:

أرَى المجدَ الذي نَبغـي عَتِيدًا أقـامَ لِطالِبيـهِ بالوَصِيـد[8]
فَهُبُّـوا نَحْـوَهُ ودَعُـوا التَّوانِي وسِيرُوا سِيرةَ الرَّجُلِ الرَّشِيد[9]

---

(1) يَفُلّ السيف: يثلمه أي يحدث فيه شقوقًا. محدود: مشحوذ مسنون. الشباة: حد السيف والسكين ونحوهما، وجمعها شبًا وشبوات.

(2) الصميم: العظم الذي به قـوام العضو. النطس ـ بضم النـون والطاء: الأطباء الحذاق. وطبيب نطس ـ بفتح النون وسـكون الطاء وكسـرها: العالم، الأساة: الأطباء، والمفرد آس، والأنثى آسية وجمعها آسيات وأواس.

(3) ندني: نقرب. الأماني: جمع أمنية وهي ما يتمناه الإنسـان ويجوز في الأماني تشديد الياء وتخفيفها. النائيات: البعيدات.

(4) النجدة: القوة، والشدة والمعونة. الزاهرات المتلألئات بالأنوار.

(5) الجأش: النفس.

(6) الأَبي: الممتنع مما يعيب. ويجوز تشديد يائه وتخفيفها. المخزيات: الأعمال التي تخزي صاحبها، أي توقعه في الخزي، وهو الهوان والعقوبة والبعد والندامة.

(7) الهداة: جمع هاد. لا ننهنه: لا نزجر.

(8) عتيدًا: مهيأ حاضرًا. الوصيد: فناء الدار، وعتبتها.

(9) دعوا: اتركوا. التواني: التقصير والتمهل.

أيُعْجِبُكم بأن نَبقَى رُقُودًا عن العَلياء، نرسُفُ في القيود؟[1]

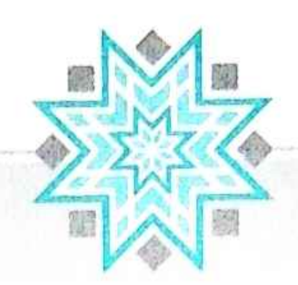
نَصَحتُ لكم. وفي هذا بَلاغٌ لقومٍ راغبين عن الجمُودِ[2]

* * *

(1) رقودًا: نيامًا. نرسف: نمشي مشية المقيد.

(2) بلاغ: كفاية.

إن ما ورد من الشعر في هذه العظة هو لصاحب العظات.



فهرس الكتاب

* * *



وبعدُ فهذه شذَرَاتٌ كنتُ أنشُرُها في جريدة المفيد، تحتَ عُنوانِ «عِظَة الناشـئين» وبإمضاء «أبي الفياض». وقد كان لها في نُفُـوس القُرَّاء جميـلُ الوَقعِ، وعظيمُ التأثير. وكان كثيرٌ منهم يَستحسنُ أن تُطبعَ هذه العِظاتُ في كتابٍ وتُنشَـرَ بينَ من لم يكن يطالعُ تلك الجريدة. فلما قتلتُ هذا الأمر يقينًا، عَزَمتُ على نشرها بين شبَّان الأُمَّةِ لتكونَ لهم نِبراسًا وهُدًى. والله الموفق.

الغلاييني

ISBN-13 978-9933-586-05-8



تلفاكس: 963112247242+
ص.ب: 31429 - سورية - دمشق
E-mail: meraj.press@gmail.com



